الفصل الثاني

أسباب التمكين

تمهيد:

إن الأخذ بالأسباب التي تؤدي إلى التمكين أمر أرشدنا إليه القرآن الكريم، وحثنا على الأخذ بها سيد المرسلين ﷺ.

وقد أمر الله تعالى بالإعداد الشامل فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60].

والإعداد في حقيقته أخذ بالأسباب، وأشارت الآية الكريمة إلى الأمر بإعداد:

1 ـ ما استطعتم من قوة.

2 ـ ومن رباط الخيل.

و الغاية:

1 ـ ترهبون به عدو الله وعدوكم.

2 ـ وآخرين من دونهم لا تعلمونهم.

وإعداد القوة، لفظ عام يشمل كل قوة، فقوة العقيدة والإيمان قوة، وقوة الصف والتلاحم قوة، وقوة السلاح والساعد قوة.

ـ ورباط الخيل إشارة إلى السلاح الثقيل، وإشارة إلى وجوب وجوده في أيدي المسلمين لا تلقيه شراء أو هبة من أحد.

obeikandi.com

ولايمنع من الحفاظ على الخيل كجزء من الإعداد الإسلاميّ، لأنها عند الالتحام أقوى من التحام الأفراد بغير أفراس وقد أثبتت الحروب الحديثة أهمية الخيل كما حدث للمجاهدين في جبال الأفغان ضد الشيوعيين، وفي جنوب السودان ضد النصارى.

إن الآية الكريمة تضع أذهان المسلمين على الإعداد الشامل، المعنوي والمادي، العلمي والفقهي على مستوى الأفراد والجماعات، وتدخل في طياتها الإعداد التربوي، والسلوكي، والإعداد المالي، والإعداد الإعلامي، والسياسي والأمني والعسكري... إلخ.

كما أن الآية الكريمة وضحت أن الإعداد يحتاج إلى إنفاق هائل، ووعدت بالتعويض في الدنيا، والجزاء في الآخرة، لتحفز المسلمين وتحثهم على ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60].

obeikandl.com

المبحث الأول

سنة الأخذ بالأسباب وإرشاد القرآن للإعداد

أولاً: سنة الأخذ بالأسباب:

إن من أهم السنن الربانيّة التي ترتبط بعلاقة مباشرة مع سنن التمكين: سنة الأخذ بالأسباب؛ ولذلك يجب على الأفراد والجماعات العاملة للتمكين لدين الله من فهمها واستيعابها وإنزالها على أرض الواقع.

قال الإمام الرازي: أصل السبب في اللغة: الحبل. قالوا: ولا يدعى الحبل سبباً حتى ينزل ويصعد به ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [الحج 15]، . ثم قيل: لكل شيء سبب لأنك بسلوكه تصل الموضع الذي تريده قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف 85] أي طريقاً، وأسباب السموات: أبوابها؛ لأن الوصول إلى السماء يكون بدخولها، قال تعالى مخبراً عن فرعون: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر 36 ـ 37]، والمودة بين القوم تسمى سبباً؛ لأنهم بها يتواصلون، والسبب في اصطلاح الشرع: مايوصل إلى الشيء ولايؤثر فيه كالوقت للصلاة(1).

واستعير السبب لكل مايتوصل به إلى أمر من الأمور(2)، إن سنة الأخذ بالأسباب مقررة في كتاب الله تعالى، ولقد وجه الله عباده المؤمنين إلى وجوب مراعاة هذه السُنَّة في كل شؤونهم، الدنيوية والأخروية سواء.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة 105].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك 15].

(1) انظر: مفاتيح الغيب (2/ 626).

(2) انظر: مفردات القرآن، كتاب السين، ص 220، المعجم الوسيط ص 426.

ولقد أخبرنا القرآن الكريم: أن الله تعالى طلب من السيدة مريم أن تباشر الأسباب وهي في أشد حالات ضعفها قال تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم 25].

وهكذا يؤكد القرآن الكريم على ضرورة مباشرة الأسباب في كل الأمور والأحوال(1).

«ولقد قدر الله سبحانه وتعالى لدينه أن ينتصر، وللمسلمين أن يمكَّنوا، وللمشركين أن ينهزموا، ومع ذلك فهل قال الله تعالى للمسلمين: مادمت قدَّرت لكم النصر والتمكين فاقعدوا وانتظروا إنفاذ قدري، وهو لابد نافذ؟ كلا، وإنما قال لهم: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ۛ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ﴾ [محمد: 4].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: 7]، فلابد من اتخاذ الأسباب للنصر والتمكين، وإن كان ذلك قدراً مقدوراً من عند الله»(2).

«وليس الله ـ سبحانه وتعالى ـ عاجزاً عن نصرة الحق بغير الأدوات البشرية. وهو الذي يقول للشيء كن فيكون، ولكن هكذا اقتضت مشيئته وهكذا تجري سننه»(3). ورسول الله ﷺ وهو أفضل المتوكلين، كان أوعى النَّاس لهذه السُّنَّة الربانية، فكان وهو يؤسس لبناء الدولة الإسلامية يأخذ بكل ما في وسعه من أسباب، ولايترك شيئاً يسير جزافاً. والمتتبع للسيرة النبوية يلمس ذلك تماماً... «ففي الهجرة ـ على سبيل المثال ـ لم يترك رسول الله ﷺ أمراً من الأمور إلا أعدَّ له عدته، وحسب له حسابه، ورسم له خطته على نحو يستوعب كل الطاقات والوسائل.

فقد أعد النبيّ ﷺ الرواحل والدليل، واختار الرفيق والمكان الذي سيتوارى فيه ـ هو وصاحبه ـ حتى يهدأ الطلب، وتفتر الحماسة. وأحاط ذلك كله بما يمكن للبشر من أخذ الحذر، والكتمان، وأسباب الاحتياط، وترك للإرادة الإلهية ـ بعد ذلك ـ ما لا حيلة له فيه»(4).

وكذلك الأمر بالنسبة لغزوة بدر، وأحد، والأحزاب... وجميع غزواته ﷺ وكل أموره.

---

(1) انظر: التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن لمحمد السيد، ص 248.
(2) مفاهيم ينبغي أن تصحح لمحمد قطب، ص 262، 263 بتصرف يسير.
(3) حول التفسير الإسلاميّ للتاريخ، محمد قطب، ص 104.
(4) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة المقبلة للدكتور القرضاوي، ص 17، 18.

وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يوجه أصحابه دائماً إلى مراعاة هذه السُّنَّة الربانية، في أمورهم الدنيوية والأخروية على السواء، ففي أمورهم الدنيوية كان النبيّ ﷺ يرشدهم دائماً إلى الأخذ بما يمكن من أسباب للوصول إلى حياة كريمة بعيداً عن ذل السؤال ومهانة العوز والحاجة. روى أبو داود والترمذي عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً من الأنصار أتى النبيّ ﷺ فسأله عطاء، فقال الرسول ﷺ: «**أما في بيتك شيء؟**» قال: بلى، حلس نلبس بعضه، ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه. قال: «**ائتني بهما**»، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال: «**من يشتري مني هذين؟**» قال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال رسول الله ﷺ: «**من يزيد على درهم؟**» مرتين أو ثلاثاً، فقال رجل: أنا آخذهما بدرهمين. فأعطاه إياهما فأخذ الدرهمين، وأعطاهما الأنصاري، وقال له: «**اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوماً فائتني بها**»، فأتاه به، فشد فيه رسول الله ﷺ عوداً بيده، ثم قال: «**اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوماً**». فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً، وببعضها طعاماً، فقال له رسول الله ﷺ: «**هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة سوداء في وجهك يوم القيامة**»[1].

«وهذا المعنى نفسه الذي أشار إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال للكسالى القابعين في المسجد ينتظرون الرزق: لايقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللَّهُمَّ ارزقني وقد علم أن السماء لاتمطر ذهباً ولافضة، وإن الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 10].

نعم، لابد من بذل الجهد، لأن الأخذ بالأسباب والكدح للحصول على مايرغب الإنسان في تحقيقه هو ذاته من سنن الله تعالى...»[2].

وكذلك بالنسبة لأمر الآخرة. لابد من الأخذ بالأسباب حتى يصل الإنسان إلى ما يرجو من رحمة الله وجنته. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: 19]. لقد كان في وجدان الأمة الإسلامية في عصرها الزاهر أن إيمانها بقدرة الله ـ تعالى ـ المطلقة، وقضائه وقدره لايتعارض مع اتخاذ الأسباب.

لقد كانوا يدركون أن لله ـ تعالى ـ سنناً في هذا الكون وفي حياة البشر غير قابلة للتغيير.

(1) رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة (2/ 120).
(2) حول تفسير التاريخ الإسلاميّ، ص 89.

ومع أن لله تعالى سنناً خارقة تملك أن تصنع كل شيء ولايعجزها شيء، إلا أن الله جلت قدرته قد قضى أن تكون سنته الجارية ثابتة في الحياة الدنيا، وأن تكون سننه الخارقة استثناء لها، وكلتاهما معلقة بمشيئة الله.

لذلك كان في حسهم أنه لابد لهم من مجاراة السنن الجارية إذا رغبوا في الوصول إلى نتيجة معينة في واقع حياتهم. أي أنه لابد من اتخاذ الأسباب المؤدية إلى النتائج بحسب تلك السنن الجارية[1].

ولقد أصاب المسلمين في أحد ما أصابهم... لأنهم لم يستجمعوا المقدمات التي تنتج النصر، ولم يكن المشركون أولى بالله منهم. ولكن هذه سنة الله، فالله ـ تعالى ـ قد وضع للنصر أسباباً كثيرة، وأوجب على عباده رعايتها، فمن أبى فلا يلومن إلا نفسه.

وإن تأخُر المسلمين اليوم عن القيادة العالمية لشعوب الأرض لم يكن ظلماً وقع بهم، بل كان نتيجة طبيعية لقوم نسوا رسالتهم، وحطوا مكانتها، وشابوا معدنها بركام هائل من الأوهام في مجال العلم والعمل على سواء، وأهملوا السنن الربانية وظنوا أن التمكين قد يكون بالأماني والأحلام ولكن هيهات بل هذا من صميم العدل الإلهي[2]، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [آل عمران: 182].

ولكن إذا كان هذا عقاب الله للمؤمنين الذين عصوه، فما بال الكافرين الذين جحدوه سبحانه بالمرة، ومع ذلك فإنهم متمكنين في الأرض ـ من الناحية المادية ـ غاية التمكين؟

إن هؤلاء الكفار لم يبلغوا مابلغوه لأنهم أقرب من الله أو أرضى له. ولم يبلغوا مابلغوا بسحر أو بمعجزة أو لأنهم خلق آخر متميز، ولم يقيموا الصناعات أو يجوبوا البحار، أو يخترقوا أجواء الفضاء لأن عقيدتهم حق، أو لأن فكرهم سليم... إنهم بلغوا ذلك لأن السبيل إلى هذا التقدم درب مفتوح لجميع خلق الله مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾ [هود 15].

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل التمكين في الحياة يمضي بالجهد البشري، وبالطاقة البشرية على سنن ربانية ثابتة، وقوانين لا تتبدل ولا تتحول. فمن يقدم الجهد الصادق ويخضع لسنن الحياة يصل على قدر جهده وبذله، وعلى قدر سعيه وعطائه.

---

(1) انظر: مفاهيم ينبغي أن تصحح، ص 262، 263.

(2) انظر: الغزو الثقافي يمتد من فراغنا للغزالي، ص 147 ـ 150.

إنها السُّنَّة التي أرادها الله في هذه الحياة، إنها مشيئته وسننه وإرادته[1].

ب ـ التوكل على الله والأخذ بالأسباب:

التوكل على الله ـ سبحانه وتعالى ـ لايمنع من الأخذ بالأسباب، فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها، ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشىء النتائج فيتوكل عليها[2].

ولقد أرشد النبيّ ﷺ في أحاديث كثيرة إلى ضرورة الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى. كما نبه ﷺ على عدم تعارضها.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ، قال: «**لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتعود بطاناً**»[3].

في هذا الحديث الشريف حث على التوكل مع الإشارة إلى أهمية الأخذ بالأسباب حيث أثبت الغدو والرواح للطير مع ضمان الله تعالى الرزق لها[4].

إن العمل بسنة الأخذ بالأسباب من صميم تحقيق العبودية لله تعالى، وهو الأمر الذي خلق له العبيد، وأرسلت به الرسل، وأنزلت لأجله الكتب، وبه قامت السموات والأرض، وله وجدت الجنة والنار. فالقيام بالأسباب المأمور بها محض العبودية[5].

إن القرآن الكريم أرشدنا إلى الأخذ بالأسباب وأرشدنا ألا نعتمد عليها وحدها وإنما نتوكل على الله مع الأخذ بها وعلى المسلم أن يتقي في باب الأسباب أمرين:

1 ـ الاعتماد عليها، والتوكل عليها، والثقة بها ورجاؤها وخوفها فهذا شرك يرقّ ويغلظ، وبين ذلك.

2 ـ ترك ما أمر الله به من الأسباب، وهذا أيضاً قد يكون كفراً وظلماً وبين ذلك، بل على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله، سبق بها علمه، وحكمه، وأن السبب لايضر ولاينفع ولايعطي ولايمنع ولايقضي

---

(1) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص 252.
(2) المصدر نفسه، ص 253.
(3) الترمذي، كتاب الزهد، باب التوكل على الله (4/ 573) رقم 2344، حسن صحيح.
(4) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص 452.
(5) انظر: مدارج السالكين (2/ 130).

obeikandi.com

ولايحكم، ولا يحصل للعبد مالم تسبق له به المشيئة الإلهية ولايصرف عنه ماسبق به الحكم والعلم، فيأتي بالأسباب إتيان من لايرى النجاة والفرح والوصول إلا بها، ويتوكل على الله توكل من يرى أنها لا تنجيه ولاتحصل له فلاحاً ولاتوصله إلى المقصود، فيجرد عزمه للقيام بها حرصاً واجتهاداً، ويفرغ قلبه من الاعتماد عليها والركون إليها تجريداً للتوكل واعتماداً على الله وحده[1].

وقد جمع النبيّ ﷺ بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح، حيث يقول: «**احرص على ماينفعك، واستعن بالله ولا تعجز...**»[2].

فأمره بالحرص على الأسباب والاستعانة بالمسبب ونهاه عن العجز وهو نوعان:

1 ـ تقصير في الأسباب وعدم الحرص عليها.

2 ـ وتقصير في الاستعانة بالله وترك تجريدها.

فالدين كله ظاهره وباطنه، وشرائعه وحقائقه تحت هذه الكلمات النبوية[3].

إن استيعاب وفهم سنة الأخذ بالأسباب لأفراد الأمة الإسلامية وجماعتها من ضروريات فقه التمكين لهذا الدين.

ثانياً: إرشاد القرآن للإعداد:

أن أمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنواع القوى، على اختلافها وتنوعها. ولذلك اهتم القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بإرشاد الأمة للأخذ بأسباب القوة وأوجب الله تعالى على الأمة الأخذ بأسبابها، لأن التمكين لهذا الدين طريقة الوصول إلى القوى بمفهومها الشامل وقد قال الأصوليون: «ومالايتم الواجب إلا به فهو واجب»[4].

إن القرآن الكريم أوجب على أتباعه إعداد القوة بسورة واضحة قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60].

---

(1) مدارج السالكين (3/ 501).
(2) مسلم، كتاب القدر، باب الأمر بالقوة (4/ 2052) رقم 2664.
(3) انظر: مدارج السالكين (3/ 501).
(4) في ظلال القرآن (2/ 919).

شرح الآية الكريمة:

الإعداد: تهيئة الشيء للمستقبل[1]. والضمير في «لهم» راجع إلى الكفار.

وقوله: ﴿مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ قال ابن كثير: أي مهما أمكنكم[2]، وهذا التعبير القرآني يشير إلى أقصى حدود الطاقة، بحيث لاتقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها[3].

والمراد بالقوة هنا: مايكون سبباً لحصول القوة، وذكر الفخر الرازي فيه وجوهاً:

1 ـ المراد من القوة أنواع الأسلحة.

2 ـ ورد أن النبيّ ﷺ قرأ الآية الكريمة على المنبر وقال: «**ألا إن القوة الرمي**»، قالها ثلاثاً[4].

3 ـ قال بعضهم القوة هي الحصون.

4 ـ قال أصحاب المعاني: الأَولى أن يقال: هذا عام في كل ما تتقوى به على حرب العدو، وكل ماهو آلة للغزو والجهاد، فهو من جملة القوة، وقوله عليه السلام: «**القوة الرمي**» لاينفي كون غير الرمي معتبراً كما أن قوله: «**الحج عرفة**»[5]. وقوله: «**الدين النصيحة**»[6] لاينفي اعتبار غيره بل يدل على أن هذا المذكور جزء شريف من المقصود وكذا هنا[7].

كما يساعد على هذا الفهم مجيء كلمة «قوة» هنا نكرة لا معرفة فهي تشمل كل سلاح معروف أو سيعرف مع الزمن المتجدد فهي تتسع لإعداد الطائرات والصواريخ والدبابات... وكل الأسلحة التي لها التأثير الحاسم في المعركة[8].

ومعنى ﴿رِبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ قال النسفي: هي اسم للخيل التي ترابط في سبيل الله تعالى[9].

---

(1) تفسير المنار (5/ 53).
(2) تفسير القرآن العظيم (2/ 122).
(3) في ظلال القرآن (2/ 1553).
(4) مسلم مع شرح النووي، كتاب الجهاد، باب فضل الرمي (13/ 64).
(5) مسلم، كتاب الإيمان، باب: إن الدين النصيحة (1/ 74).
(6) المصدر نفسه.
(7) تفسير المنار (5/ 53).
(8) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص 89.
(9) انظر: تفسير النسفي.

وقال صاحب تفسير المنار: الرباط في أصل اللغة: الحبل الذي يربط به الدابة، ورباط الخيل: حبسها واقتناؤها[1] ومعنى ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ﴾ أي تخزون، كما قال الطبري[2]، وقال ابن كثير: تخوّفون به[3]، وقال الشيخ المراغي: الرهبة: هي الخوف المقترن بالاضطراب[4].

ومعنى ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ﴾، قال الطبري: هم كل عدو للمسلمين غير الذي أُمر النبيّ ﷺ أن يشرد بهم من خلفهم[5]. وذكر الفخر الرازي فيه وجوهاً، ثم قال: وأصح ماقيل في المقصود منهم: «أنهم المنافقون»[6].

ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة ما لأجله أمر بإعداد هذه الأشياء فقال جل شأنه ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ﴾ ذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له ومستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم وذلك الخوف يفيد أموراً كثيرة:

1 ـ أنهم لا يتجرأون على دخول دار الإسلام.

2 ـ أنهم إذا اشتد خوفهم فربما التزموا من عند أنفسهم دفع الجزية.

3 ـ أنه ربما صار ذلك داعياً إلى الإيمان لما يرون من قوة أهله وعزتهم.

4 ـ أنهم لايعينون سائر الكفار.

5 ـ أن يصير ذلك سبباً لمزيد الزينة في دار الإسلام[7].

ويقول صاحب الظلال: «الإسلام يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها... فلابد للإسلام من قوة ينطلق بها في الأرض لتحرير الإنسان.

وأهمية القوة بالنسبة للدعوة الإسلامية تتلخص في أمور:

الأمر الأول: أن تؤمِّن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها فلا يصدوا عنها، ولايفتنوا كذلك بعد اعتناقها.

(1) تفسير المنار (10/ 16).
(2) تفسير الطبري (6/ 22).
(3) تفسير ابن كثير (2/ 322).
(4) تفسير المراغي (4/ 23).
(5) تفسيرالطبري (6/ 22).
(6) مفاتيح الغيب (7/ 533).
(7) المصدر نفسه (7/ 324) ومابعدها.

الأمر الثاني: أن ترهب هذه القوة أعداء الإسلام، فلا يفكروا في الاعتداء على حرمات الإسلام.

الأمر الثالث: أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء ألا يفكروا في الوقوف في وجه الدين الإسلاميّ وهو ينطلق لتبليغ كلمة الله إلى الإنسان في كل الأرض.

الأمر الرابع: أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة «الألوهية» من دون الله رب العالمين»[(1)].

وبما أن الأمة الإسلامية أمة مجاهدة، فلابد أن تكون هذه الأمة قوية حتى تستطيع أن تنهض بهذه الرسالة التي أنيطت بها، ولذلك حث النبيّ ﷺ المؤمنين أن يكونوا أقوياء، وعلى أن يحصلوا كل أسباب القوة، فقال ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**»[(2)].

وما أحوج المسلمين اليوم إلى أن يحصّلوا كل أسباب القوة، فهم يواجهون نظاماً عالمياً وقوى دولية لاتعرف إلا لغة القوة، فعليهم أن يقرعوا الحديد بالحديد، ويقابلوا الريح بالإعصار، ويقاتلوا الكفر وأهله بكل مايقدرون عليه، وبكل ما امتدت إليه يدهم، وبكل ما اكتشف الإنسان ووصل إليه العلم في ذلك العصر من سلاح، وعتاد واستعداد حربي، لايقصرون في ذلك ولايعجزون[(3)].

إن هذا الإعداد الشامل من أجل تمكين دين الله يدخل تحت مسمى الجهاد والذي بدونه يستحيل التمكين لشرع الله وإقامة دولة تحكم بمنهج الله، يقول الأستاذ محمد الغزالي: «إن التغيير الإسلاميّ الذي تنشده الأمة لايمكن تحقيقه من غير جهاد، وبدون صياغة جيل مجاهد، فالمهمة التغييرية مهمة شاقة، فالقوى الظاهرة والخفية القابضة على الزمام في العالم قوى شريرة، وقد هيأها أعداء الإسلام لهذا الدور من زمن بعيد وهي تعمل ليل نهار على خفت صوت الإسلام بشتى الطرق والوسائل. وإزالة هذه القوى، وإقامة الإسلام مكانها ليس بالأمر السهل، فهي ستتشبث بمواقعها حتى النفس الأخير وذلك يحتاج أولاً وقبل كل شيء إلى تربية جهادية تخرج أنماطاً من المجاهدين، يحبون الموت كما يحب النّاس الحياة، ويعيشون همّ الإسلام وقضاياه ليلهم ونهارهم. لابد من بناء قاعدة صلبة متينة تستطيع أن

---

(1) في ظلال القرآن (3/ 3154) بتصرف.

(2) مسلم مع شرح النووي، (16/ 215).

(3) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي، ص 225.

obeikandi.com

تصمد في هذا الصراع الجبار، وتقف في وجه المؤامرات، وتجاهد في كل المجالات والجبهات، وتدفع ثمن التمكين لدين الله في الأرض من زهرة أبنائها الشهداء»[1]. إن الواجب على الأمة الإسلامية اليوم لتنهض وتتقدم وتترقى في مصاعد المجد، أن تجاهد بمالها ونفسها الجهاد الذي أمرها الله به في القرآن الكريم مراراً عديدة، فالجهاد بالمال والنفس هو العلم الأعلى الذي يهتف بالعلوم كلها، فإذا تعلمت الأمة هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف»[2].

(1) ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ص 75 بتصرف.

(2) انظر: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ للأمير شكيب أرسلان، ص 164.

openeikandil.com

obeikandi.com

المبحث الثاني

الأسباب المعنوية

ويحتل الإعداد المعنوي المكانة الأولى، حتى أن التمكين ليرتبط ـ بالدرجة الأولى ـ بمدى الأخذ بهذه الأسباب ومن أهمها:

أولاً: إعداد الأفراد الربانيين:

أ ـ ولقد رسم لنا النبيّ ﷺ منهجاً متميزاً في تربية الأفراد على معاني الربانية، وتحمل أداء رسالة رب البرية، وكان ﷺ مهتماً ببناء القاعدة الصلبة، وتربية أتباعه على معاني العقيدة الصحيحة، فقد حرص ﷺ منذ اليوم الأول من بعثته على أن يعطي النَّاس التصور الصحيح عن ربهم وعن حقه عليهم، مدركاً أن هذا التصور سيورث التصديق واليقين عند من صفت نفوسهم، واستقامت فطرتهم، ولقد ركز النبيّ ﷺ في تربيته لأصحابه على عدة جوانب منها:

1 ـ إن الله منزه عن النقائص، موصوف بالكمالات التي لاتتناهى فهو سبحانه واحد لاشريك له، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً.

2 ـ وأنه سبحانه خالق كل شيء، ومالكه، ومدبر أمره ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف 54].

3 ـ وأنه تعالى جدّه مصدر كل نعمة في هذا الوجود، دقت أو عظمت، ظهرت أوخفيت ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل 53].

4 ـ وأن علمه محيط بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولا مايخفي الإنسان وما يعلن: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق 12].

5 ـ وأنه سبحانه يحصي على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته، في كتاب لايترك صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها، وسينشر ذلك في اللحظة المناسبة، والوقت المناسب ﴿مَالِ هَٰذَا

ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف 49].

6 ـ وأنه سبحانه يبتلي عباده بأمور تخالف ما يحبون، وما يهوون، ليعرف النَّاس معادنهم، من منهم يرضى بقضاء الله وقدره، ويسلم له ظاهراً وباطناً، فيكون جديراً بالخلافة والإمامة والسيادة، ومن منهم يغضب ويسخط، فلا يساوي شيئاً، ولا يسند إليه شيء: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك 2].

7 ـ وأنه سبحانه يوفق ويؤيد وينصر من لجأ إليه، ولاذ بحماه، ونزل على حكمه في كل ما يأتي ومايذر: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف 196].

8 ـ وأنه سبحانه وتعالى حقه على العباد أن يعبدوه، ويوحدوه، فلا يشركوا به شيئاً: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر66].

9 ـ وأنه ـ سبحانه ـ حدد مضمون هذه العبودية، وهذا التوحيد في القرآن العظيم.

ب ـ وظل ـ ﷺ يطرق معهم هذه الجوانب، ويكرر على أصحابه، ومن آمن به، ويفتح عيونهم عليها من خلال الكتاب المنظور، والكون المسطور حتى خشعت قلوبهم وسمت أرواحهم وطهرت نفوسهم، ونشأ لديهم تصور وإدراك لحقيقة ومضمون الألوهية، يخالف تصورهم الأول، وإدراكهم القديم[1].

واهتم ﷺ بغرس حقيقة المصير وسبيل النجاة لأصحابه موقناً أن من عرف منهم عاقبته، وسبيل النجاة والفوز في هذه العاقبة، سيسعى بكل ما أوتي من قوة ووسيلة لسلوك هذا السبيل، حتى يظفر غداً بهذه النجاة وذلك الفوز، وركّز ﷺ في هذا البيان على الجوانب التالية:

1 ـ إن هذه الحياة الدنيا مهما طالت فهي إلى زوال، وأن متاعها مهما عظم، فإنه قليل حقير: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس 24].

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء 77].

---

(1) انظر: منهج الرسول ﷺ في غرس الروح الجهادية للدكتور/ سيد نوح، ص 10 ـ 16.

2 ـ وأن كل الخلق إلى الله راجعون، وعن أعمالهم مسؤولون ومحاسبون وفي الجنة أو في النار مستقرون: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: 63].

3 ـ وأن نعيم الجنة ينسي كل تعب ومرارة في الدنيا، وكذلك عذاب النار ينسي كل راحة وحلاوة في هذه الدنيا: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ (٢٠٧)﴾ [الشعراء 205 ـ 207].

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة 24].

4 ـ وأن النَّاس مع زوال الدنيا، واستقرارهم في الجنة، أو في النار، سيمرون بسلسلة طويلة من الأهوال والشدائد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾ [الحج: 1 ـ 2]. وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا (١٧) ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا (١٨)﴾ [المزمل: 17 ـ 18].

5 ـ وسبيل النجاة من شر هذه الأهوال، ومن تلك الشدائد، والظفر بالجنة والبعد عن النار[1]، بالإيمان بالله تعالى وعمل الصالحات ابتغاء مرضاته ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [البروج: 11].

جـ ـ ومضى ﷺ كذلك يبصرهم ويذكرهم بدورهم ورسالتهم في الأرض، ومنزلتهم ومكانتهم عند الله، وظل ﷺ معهم على هذه الحال من التبصير والتذكير حتى انقدح في ذهنهم ما لهم عند الله، وما دورهم، ورسالتهم في الأرض، وتأثراً بتربيته الحميدة تولدت الحماسة والعزيمة في نفوس أصحابه، فانطلقوا عاملين بالليل والنهار بكل ما في وسعهم، وما في طاقتهم دون كسل أو توان، ودون كلل أو ملل، ودون خوف من أحد إلا من الله، ودون طمع في مغنم إلا أداء هذا الدور وهذه الرسالة، لتحقيق السعادة في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة[2].

وكان ﷺ يحرص على إعداد أصحابه إعداداً ربانياً وكانت خطواته تتم بكل هدوء وتدرج وسرية وانصبَّت أهدافه التربوية على تعليم الكتاب والسُّنَّة وتلاوة القرآن الكريم وتطهير النفوس من أمراضها، وإعداد الأفراد لتحمل تكاليف الدعوة والرسالة، وكان شعار هذه المرحلة هو

(1) انظر: منهج الرسول ﷺ في غرس الروح الجهادية، ص 19 ـ 34.
(2) انظر: المصدر نفسه، ص 37.

توجيه المولى عَزَّوَجَلَّ لنبيه ﷺ والدعاة من بعده ذلك التوجيه المتمثل في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: 28].

فالآية الكريمة، تأمر النبيّ ﷺ بأن يصبر على تقصير وأخطاء المستجيبين لدعوته، وأن يصبر على كثرة تساؤلاتهم خاصة إن كانت خاطئة، وأن يصبر على ترددهم في قبول التوجيهات، وأن يجتهد في تصبيرهم على فتنة أعداء الدعوة، وأن يوضح لهم طبيعة طريق الدعوة، وأنها شاقة، وألا يغرر مغرر ليبعده عنهم، وألا يسمع فيهم متنقصاً، ولايطيع فيهم متكبراً أغفل الله قلبه عن حقيقة الأمور وجوهرها[1].

هذه هي المنهجية التي رسمها رسول الله ﷺ في إعداد الأفراد إعداداً ربانياً وعلى زعماء وقادة الحركات الإسلامية أن يسيروا على نفس المنهج الذي سار عليه رسول الله ﷺ والذي هو في حقيقته تفسيراً للقرآن الكريم، إن الآيات الكريمة السابقة من سورة الكهف تصف لنا الشخصية الربانية في عدة صفات منها:

أ ـ الصبر في قوله تعالى ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾:

إن كلمة الصبر تتردد في القرآن الكريم وفي أحاديث النبيّ ﷺ ويوصي النَّاس بعضهم بعضاً وتبلغ أهميتها أن تصير صفة من أربع للفئة الناجية من الخسران.

قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [سورة العصر]، فحكم المولى عَزَّوَجَلَّ على جميع النَّاس بالخسران إلا من أتى بهذه الأمور الأربعة:

1 ـ الإيمان بالله.

2 ـ العمل الصالح.

3 ـ التواصي بالحق.

4 ـ التواصي بالصبر.

لأن نجاة الإنسان لاتكون إلا إذا أكمل الإنسان نفسه بالإيمان والعمل الصالح وكمل غيره بالنصح والإرشاد، فيكون قد جمع بين حق الله، وحق العباد، والتواصي بالصبر ضرورة؛ لأن

(1) انظر: الطريق إلى جماعة المسلمين، ص 170.

القيام على الإيمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل من أعسر مايواجه الفرد والجماعة، ولا بد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير، والصبر على الأذى والمشقة، والصبر على تبجح الباطل، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل، وانطماس المعالم وبعد النهاية[1].

إن كلمة الصبر قصيرة سهلة لاتجاوز ثلاثة حروف، يستطيع كل إنسان أن ينطقها، وأن يوصي بها ولكن معاناتها أمر آخر والصبر في حقيقته أنواع منها:

صبر على المعاصي: وهو واجب على كل مؤمن فضلاً عن الدعاة.

وصبر على الطاعات: وهو واجب كل مؤمن فضلاً عن الدعاة وإن كان عليهم أن يستزيدوا من الطاعات، لأن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي.

وصبر على البلاء: وهو وإن كان واجباً على المؤمن، إلا أنه بالنسبة للداعية أوجب لما يترتب على الدعوة من تعرض للبلاء.

ب ـ كثرة الدعاء والإلحاح على الله:

وهذا يظهر في قوله تعالى ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف 128] فالدعاء باب عظيم، فإذا فتح للعبد تتابعت عليه الخيرات، وانهالت عليه البركات، فلابد من تربية الأفراد الذين يعدون لحمل الرسالة وأداء الأمانة على حسن الصلة بالله وكثرة الدعاء؛ لأن ذلك من أعظم وأقوى عوامل النصر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186]. ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر 60].

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال 9].

وقد أمر الله بالذكر والدعاء عند لقاء العدو، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال 45].

لأنه سبحانه النصير فنعم المولى ونعم النصير. قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران 126]. ولهذا كان النبيّ ﷺ يدعو ربه في معاركه ويستغيث به،

(1) انظر: الظلال (6/ 3968).

obeikandl.com

فينصره ويمده بجنوده، ومن ذلك أنه نظر ﷺ يوم بدر إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً فاستقبل ﷺ القبلة ورفع يديه واستغاث بالله، وما زال يطلب المدد من الله وحده ماداً يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يانبيَّ الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ماوعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: 9]. فأمده الله بالملائكة[1] وهكذا كان يدعو الله في جميع معاركه ومن ذلك قوله: «**اللَّهُمَّ منزل الكتاب، سريع الحساب، مجري السحاب، هازم الأحزاب اللَّهُمَّ اهزمهم وزلزلهم وانصرنا عليهم**»[2]. وكان يقول عند لقاء العدو: «اللَّهُمَّ أنت عضدي، وأنت نصيري، بك أجول، وبك أصول، وبك أقاتل»[3].

وكان إذا خاف قوماً قال: «اللَّهُمَّ إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم»[4].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد حين قال له النَّاس: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران 173][5]. وهكذا ينبغي أن يكون إعداد الأفراد إعداداً ربانياً بحيث يستطيعون حمل لواء الجهاد الذي يتقدمون به لتمكين دين الله[6].

جـ ـ الإخلاص:

ويظهر في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: 28]، ولابد عند إعداد الأفراد إعداداً ربانياً أن يتربى المؤمن على أن تكون أقواله وأعماله وجهاده كله لوجه الله وابتغاء مرضاته وحسن مثوبته، من غير نظر إلى مغنم أو جاه أو لقب أو تقدم أو تأخر، وحتى يصبح جندياً من أجل العقيدة والمنهج الرباني ولسان حاله قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: 162 ـ 163].

إن الإخلاص ركن من أركان قبول العمل ومعلوم أن العمل عند الله تعالى لايقبل إلا بالإخلاص وتصحيح النية وبموافقة السُّنَّة والشرع.

---

(1) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة (3/ 1383) رقم 1763.
(2) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب استحباب الدعاء (3/ 3631).
(3) صحيح أبي داود، كتاب الجهاد، باب مايدعى عند اللقاء (2/ 499) رقم 2291.
(4) صحيح أبي داود (2/ 286).
(5) البخاري، كتاب الوحي، باب «إن الناس قد جمعوا لكم» (6/ 48).
(6) انظر: الجهاد في سبيل الله، سعيد القحطاني، ص 36.

وبالإخلاص تتحقق صحة الباطن وقد جاء فيه قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»(1).

فهذا هو ميزان الباطن، وأما في موافقة السُنَّة، فقد قال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد**»(2).

وقد جمع الله الأمرين في أكثر من آية قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان 22]. فإسلام الوجه لله: إخلاص القصد والعمل له، والإحسان فيه، ومتابعة الرسول ﷺ وسنته.

د ـ الثبات:

ويظهر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: 28].

وهذا الثبات المذكور فرع عن ثبات أعم ينبغي أن يتسم به الداعية الرباني قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23].

ففي الآية الكريمة ثلاث صفات: إيمان ورجولة وصدق ترتب عليها: أن منهم ﴿مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب 23].

وعلى ذلك يتضح أن الثبات يحتاج إلى ثلاثة عناصر: إيمان، ورجولة، وصدق.

إيمان يبعث على التمسك بالقيم الرفيعة والتشبث بها، وباعث على التضحية بالنفس ليبقى المبدأ الرفيع، ورجولة محركة للنفس نحو هذا الهدف، غير مهتمة بالصغائر والصغار، وإنما دائماً دافعة نحو الهدف الأسمى والمبدأ الرفيع، وصدق يحول دون التحول أو التغير أو التبديل، ومن ثم يورث هذا كله الثبات الذي لايتلوّن معه الإنسان وإن رأى شعاع السيف على رقبته أو رأى حبل المشنقة ينتظره أو رأى دنيا يصيبها أو أمرأة ينكحها.

ولاشك أن اللبنات التي تعد لحمل أعباء الجهاد تحتاج إلى الثبات الذي يعين على تحقيق الأهداف السامية والغايات الجميلة والقيم الرفيعة(3).

---

(1) البخاري، كتاب الوحي. باب بدء الوحي (1/ 3) رقم1.

(2) البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا. . . (3/ 167).

(3) دعوة الله بين التكوين والتمكين للدكتور/ علي جريشة، ص 91، 92.

هـ ـ تربية الأفراد على الإيمان بالقضاء والقدر:

إن استيعاب حقيقة القضاء والقدر، والإيمان بها كما جاءت في القرآن والسُّنَّة تجعل أفراد المسلمين ينطلقون في هذه الحياة انطلاقة هادفة نحو المقاصد النبيلة.

وقد جاءت الأدلة من القرآن الكريم توضح قضية القدر، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38] وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: 2]، وأما أدلة السُّنَّة، فقد قال ﷺ: «**وتؤمن بالقدر خيره وشره**»(1).

وروى مسلم في الصحيح عن طاووس قال: «أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر، قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز»(2).

وقال ﷺ: «**إن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وماشاء فعل**»(3).

إن الإيمان بالقضاء والقدر يجعل الأفراد العاملين في الدعوة والذين يسعون لتحكيم شرع الله تعالى يتذوقون ثماراً كثيرة تجعلهم يبذلون الغالي والرخيص من أجل عقيدتهم ودينهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم.

ويستفيدون من تلك الثمار اليانعة في مسيرتهم الدعوية المباركة، بل هذه الثمرات تعود بالخير العميم على الأفراد والمجتمعات في الدنيا والآخرة.

ومن أهم هذه الثمرات:

1 ـ أداء عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، فالقدر مما تعبدنا الله سبحانه وتعالى بالإيمان به.

2 ـ الإيمان بالقدر، طريق الخلاص من الشرك؛ لأن الذي يؤمن بالقدر على الوجه الصحيح يتخلص من آفات ربما توقعه في الشرك بالله، أما الإيمان الصحيح بالقدر فهو طريق توحيد الله تعالى.

3 ـ الشجاعة والإقدام، فالذي يؤمن بالقدر يعلم أنه لن يموت إلا إذا جاء أجله، ولايناله

---

(1) مسلم، كتاب الإيمان، باب ما جاء في القدر (1/ 38) رقم 8.
(2) مسلم، كتاب القدر، باب كل شيء بقدر (4/ 2045) رقم 2655.
(3) مسلم، كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز (4/ 2052) رقم 2664.

إلا ماكتب له، فيقدم غير هياب ولامبال بما يناله من الأذى والمصائب في سبيل الله، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

أي يومي من الموت أفر أيوم لايقدرأويوم قدر
يوم ماقدر لا أرهبه وإذا قدر لاينجي الحذر[1]

4 ـ قوة الإيمان، فالذي يؤمن بالقدر يقوى إيمانه، فلا يتخلى عنه ولايتزعزع أو يتضعضع مهما ناله في ذلك من سبيل.

5 ـ الصبر والاحتساب ومواجهة الصعاب، فالذين لايؤمنون بالقدر ربما يؤدي الجزع ببعضهم إلى أن يكفروا بالله، وبعضهم يجن، وبعضهم يصبح موسوساً، وبعضهم يلجأ إلى المخدرات، وبعضهم يقتل نفسه؛ ولذلك يكثر الانتحار في البلاد التي لايؤمن أهلها بالقدر كأمريكا، والسويد، والنرويج، بل إن الأمر وصل بالسويد إلى أن يفتحوا مستشفيات لعلاج ظاهرة الانتحار، وأسباب ذلك ترجع إلى أمور تافهة، فبعضهم ينتحر بسبب تخلي خطيبته عنه، وبعضهم بسبب رسوبه في الامتحان، وبعضهم بسبب وفاة المطرب الذي يحبه، وقد يكون الانتحار جماعياً[2].

6 ـ الهداية كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ [التغابن 11].

7 ـ الكرم، فالذي يؤمن بالقدر ـ وأن الفقر والغنى بيد الله وأنه لايفتقر إلا إذا قدر الله له ذلك ـ فإنه ينفق ولايبالي.

8 ـ الإخلاص، فالذي يؤمن بالقدر لايعمل لأجل النَّاس، لعلمه أنهم لن ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له.

9 ـ إحسان الظن بالله وقوة الرجاء، فالمؤمن بالقدر حسن الظن بالله، قوي الرجاء منه في كل أحواله.

10 ـ الخوف والحذر من الله، فالمؤمن بالقدر على حذر من الله تعالى، إذ لايأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، فلا يغتر بعمله مهما كان كثيراً، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها حيث يشاء والخواتيم علمها عند الله.

---

(1) ديوان الإمام علي، ص 79 ـ 80.
(2) انظر: الإيمان بالقضاء والقدر لمحمد إبراهيم، ص 25.

11 ـ الإيمان بالقدر يقضي على كثير من الأمراض التي تفتك بالمجتمعات وتزرع الأحقاد بينهم وذلك مثل: رذيلة الحسد، فالمؤمن لايحسد النَّاس على ما آتاهم الله من فضله، فالإيمان منه بأن الله هو الذي رزقهم وقدر لهم ذلك، فأعطى من شاء ومنع من شاء ابتلاء وامتحاناً منه عَزَّوَجَلَّ فإنه حين يحسد غيره، إنما يعترض على القدر[1].

12 ـ التوكل واليقين والاستسلام لله والاعتماد عليه كما قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة 51].

13 ـ عدم الاعتماد على الكهان والمنجمين والمشعوذين والتمسح بأتربة القبور ودعاء غير الله، وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله، لأنها لا تملك لنفسها نفعاً ولاضراً.

14 ـ التواضع، فالمؤمن بالقدر إذا رزقه الله بمال، أو جاه، أو علم، أو غير ذلك تواضع لله، لعلمه أن هذا من الله، ولو شاء الله لانتزعه منه، وإنه على كل شيءقدير.

15 ـ ومن ثمرات الإيمان بالقدر: السلامة من الاعتراض على أحكام الله الشرعية، وأقداره الكونية والتسليم لله في ذلك كله.

16 ـ ومن ثمراته: الجد والحزم في الأمور والحرص على كل خير ديني أو دنيوي.

كما في قوله ﷺ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل**»[2].

17 ـ الشكر، فالمؤمن بالقدر يعلم أن مابه من نعمة فمن الله وحده، وأن الله هو الدافع لكل مكروه ونقمة، فينبعث بسبب ذلك إلى شكر الله إذ هو المنعم المتفضل الذي قدر له ذلك وهو المستحق للشكر، وهذا لا يعني ألا يشكر النَّاس.

18 ـ الرضا، فيرضى بالله رباً مدبراً مشرعاً، فتمتلئ نفسه بالرضا عن ربه فإذا رضي بالله أرضاه الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ «فالرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا، ومستراح العابدين»[3].

19 ـ فرح المؤمن بالقدر، بذلك الإيمان الذي حرمت منه أمم كثيرة، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس 58].

---

(1) انظر: مجلة البحوث الإسلامية عدد 34، ص 250، مبحث وسطية أهل السنة في القدر.
(2) مسلم، كتاب القدر، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (4/ 2052) رقم 2664.
(3) جامع العلوم والحكم لابن رجب (2/ 476).

20 ـ الاستقامة على المنهج سواء في السراء والضراء، فالعباد فيهم قصور ونقص وضعف لا يستقيمون على منهج سواء إلا من آمن بالقدر، فإن النعمة لا تبطره والمصيبة لا تقنطه.

21 ـ عدم اليأس من انتصار الحق، فالمؤمن بالقدر يعلم علم اليقين أن العاقبة للمتقين وأن قدر الله في ذلك نافذ لا محالة، فلا يدب اليأس إلى قلبه، ولا يعرف إليه طريقاً مهما احلولكت ظلمة الباطل.

22 ـ علو الهمة وعدم الرضا بالدون، وعدم الرضا بالواقع الأليم، فالمؤمن بالقدر تجده عالي الهمة لا يرضى بالدون ولا بالواقع الأليم المر، ولا يستسلم له محتجاً بالقدر، إذ إن هذا ليس مجال الاحتجاج بالقدر، بل إن إيمانه بالقدر يحتم عليه أن يسعى سعياً حثيثاً لتغيير هذا الواقع حسب قدرته واستطاعته[1].

23 ـ الإيمان بالقدر على وجه الحقيقة يكشف للإنسان حكمة الله عز وجل فيما يقدره من خير أو شر، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].

كم نعمة لاتستقل بشكرها ... لله في طي المكاره كامنة[2]

وقال آخر:

تجري الأمور على حكم القضاء وفي ... طي الحوادث محبوب ومكروه
وربما سرني ما كنت أحذره ... وربما ساءني ما كنت أرجوه[3]

24 ـ عزة النفس والقناعة والتحرر من رق المخلوقين، فالمؤمن بالقدر يعلم أن رزقه مكتوب، وأنه لن يموت حتى يستوفي رزقه، ويدرك أن الله كافيه وحسبه ورازقه، وأن العباد مهما حاولوا إيصال الرزق له، أو منعه عنه فلن يستطيعوا إلا بشيء قد كتبه الله، فينبعث بذلك إلى القناعة وعزة النفس، والإجمال في الطلب وترك التكالب على الدنيا والتحرر من رق المخلوقين، وقطع الطمع مما في أيديهم والتوجه بالقلب إلى رب العالمين، وهذا أساس فلاحه ورأس نجاحه[4].

---

(1) انظر: الإيمان بالقضاء والقدر، ص 29.
(2) انظر: جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى للغرناطي (3/ 52).
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه (3/ 29، 30).

25 ـ سكون القلب وطمأنينة النفس وراحة البال، فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر، وهي هدف منشود، فكل من على وجه البسيطة يبتغيها ويبحث عنها، وإنك لتجد عند خواص المسلمين من العلماء العاملين، والعباد القانتين المتبعين، من سكون القلب، وطمأنينة النفس ما لا يخطر على بال، ولا يدور حول ما يشبهه خيال، فلهم في ذلك الشأن والقدح المعلى، والنصيب الأوفى، فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول: «أصبحت ومالي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر»[1]. وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة»[2].

ويقول مقولته المشهورة التي قالها عندما اقتيد إلى السجن: «ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري، أينما رحلت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»[3].

إن هذه الثمار المباركة نتيجة طبيعية عندما يتربى الأفراد على مفهوم القضاء والقدر كما جاء في القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين، وتجعلهم يسعون بما يملكون من أجل التمكين لدين الله وإقامة شرع الله ويستبشرون باصطفاء الشهداء في الطريق ولا يهابون أحداً إلا الله تعالى.

هذه بعض الصفات والمعاني المهمة التي يجب أن يتربى عليها الأفراد حتى يكونوا ربانيين، فعند وصولنا إلى إعداد الفرد الرباني نكون قد قطعنا خطوة طيبة في الأخذ بسبب مهم من أسباب التمكين.

ثانياً: القيادة الربانية:

إن من أخطر عوائق التمكين غياب القيادة الربانية وذلك أن قادة الأمة هم عصب حياتها، وبمنزلة الرأس من جسدها، فإذا صلح القادة صلحت الأمة، وإذا فسد القادة سار هذا الفساد إلى الأمة، ولقد فطن أعداء الإسلام لأهمية القيادة في حياة الأمة الإسلامية، ولذلك حرصوا كل الحرص على ألا يمكنوا القيادات الربانية من امتلاك نواصي الأمور وأزِمَّة الحكم في الأمة الإسلامية، ففي خطة لويس التاسع أوصى ب «عدم تمكين البلاد الإسلامية والعربية من أن

(1) جامع العلوم والحكم (1/ 287).
(2) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية لمرعي الحنبلي، ص 34.
(3) شيخ الإسلام ابن تيمية، جهاده ودعوته وعقيدته، أحمد القطان ومحمد الزين، ص 101.

يقوم بها حاكم صالح» كما أوصى ب «العمل على إفساد أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية بالرشوة والفساد والنساء حتى تنفصل القاعدة عن القمة»[1].

وصرح المستشرق البريطاني «مونتجمري وات» في جريدة التايمز اللندنية قائلاً: «إذا وجد القائد المناسب الذي يتكلم الكلام المناسب عن الإسلام فإن من الممكن لهذا الدين أن يظهر كإحدى القوى السياسية العظمى في العالم مرة أخرى»[2]. وقال المستشرق الصهيوني «برنارد لويس» تحت عنوان: «عودة الإسلام» في دراسة نشرها عام 1976 م: «...إن غياب القيادة العصرية المثقفة، القيادة التي تخدم الإسلام بما يقتضيه العصر من علم وتنظيم، إن غياب هذه القيادة قد قيدت حركة الإسلام كقوة منتصرة، ومنع غياب هذه القيادات الحركات الإسلامية من أن تكون منافساً خطيراً على السلطة في العالم الإسلاميّ لكن هذه الحركات يمكن أن تتحول إلى قوى سياسية هائلة إذا تهيأ لها هذا النوع من القيادة»[3].

ويظهر للباحث أهمية القيادة الربانية في فقه التمكين، وقد تكلم العلماء عن صفات القائد الرباني ونجملها في أمور، ونركز على بعضها بالتفصيل، فمن أهم هذه الصفات: سلامة المعتقد، والعلم الشرعي، والثقة بالله، والقدوة، والصدق، والكفاءة، والشجاعة، والمروءة، والزهد، وحب التضحية، وحسن اختياره لمعاونيه، والتواضع وقبول التضحية، والحلم، والصبر وعلو الهمة، والتميز بخفة الروح والدعابة، والحزم والإرادة القوية، والعدل والاحترام المتبادل، والقدرة على حل المشكلات، والقدرة على التعليم وإعداد القادة، وغير ذلك من الصفات.

إن من أهم أسباب التمكين أن يتولى أمور الدعوة وقيادة المسلمين قيادة ربانية قد جرى الإيمان في قلبها وعروقها وانعكست ثماره على جوارحها وتفجرت صفات التقوى في أعمالها وسكناتها وأحوالها.

إن القيادة الربانية تستطيع أن تنتقل بفضل الله وتوفيقه بالحركة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة، ولابد أن يكون العلماء الربانيون هم قلب القيادة الربانية وعقلها المفكر حتى تسير الحركة والأمة على بصيرة وهدى وعلم.

ولابد أن نحدد من هم العلماء الذين يكونون على رأس القيادة الربانية؟

---

(1) قادة الغرب يقولون، لجلال العالم، ص 63.
(2) قادة الغرب يقولون، ص 25.
(3) التمكين للأمة الإسلامية، ص 185.

والعلماء المقصودون هم: العارفون بشرع الله، المتفقهون في دينه، العاملون بعلمهم على هدى وبصيرة، الذين وهبهم الله الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة 269].

والعلماء هم: الذين جعل الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ عماد الناس عليهم في الفقه، والعلم وأمور الدين والدنيا[1].

والعلماء هم: «فقهاء الإسلام، ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام، الذين خصوا باستنباط الأحكام، وغنوا بضبط قواعد الحلال والحرام»[2].

والعلماء هم: أئمة الدين، نالوا هذه المنزلة العظيمة بالاجتهاد والصبر واليقين ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة 24].

والعلماء هم: ورثة الأنبياء، ورثوا عنهم العلم، فهم يحملونه في صدورهم، وينطبع ـ في الجملة ـ على أعمالهم ويدعون النَّاس إليه.

والعلماء هم: الفرقة التي نفرت من هذه الأمة لتتفقه في دين الله، ثم تقوم بواجب الدعوة، ومهمة الإنذار ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة 122]، . والعلماء هم هداة النَّاس الذين لا يخلو زمان منهم حتى يأتي أمر الله، فهم رأس الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة، يقول الرسول ﷺ: «**لاتزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لايضرهم من خذلهم، أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على النَّاس**»[3].

كيف يُعرف العلماء؟

إن العلماء يُعرفون بعلمهم، فالعلم هو الميزة التي تميزهم عن غيرهم، فهم إن جهل النَّاس نطقوا بالعلم الموروث عن إمام المرسلين ﷺ، ويعرفون برسوخ أقدامهم في مواطن الشبهة، حيث تزيغ الأفهام فلا يسلم إلا من آتاه الله العلم، أو من اتبع أهل العلم.

فالعلماء أطواد ثابتة، لأنهم أهل اليقين الراسخ الذي اكتسبوه بالعلم، يقول الإمام ابن قيم الجوزية ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «إن الراسخ في العلم لو وردت عليه من الشبهة بعدد أمواج البحر ما أزالت

(1) تفسير الطبري (3/ 327).
(2) إعلام الموقعين لابن القيم (1/ 7).
(3) البخاري، كتاب الاعتصام، باب قول النبيّ ﷺ: لاتزال طائفة.... (8/ 189) رقم 7311.

obeikandi.com

يقينه، ولا قدحت فيه شكاً؛ لأنه قد رسخ في العلم فلا تستفزه الشبهات، بل إذا وردت عليه ردَّها حرسُ العلم وجيشه مغلولة مغلوبة»[1].

إن العلماء يعرفون ـ أيضاً ـ بجهادهم، ودعوتهم إلى الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ وبذلهم الأوقات، والجهود في سبيل الله.

ويعرفون بنسكهم وخشيتهم لله؛ لأنهم أعرف النَّاس بالله، يقول ـ الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر 28].

وقال الإمام ابن تيمية ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «ومن له في الأمة لسان صدق عام بحيث يُثنى عليه ويحمد في جماهير أجناس الأمة، فهؤلاء أئمة الهدى ومصابيح الدجى»[2]. وهذا حق، فالمسلمون شهداء الله في أرضه[3].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً، فقال النبيّ ﷺ: «**وجبت**»، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً، فقال: «**وجبت**»، فقال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ما وجبت؟ قال: «**هذا أثنيتم عليه خيراً، فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً، فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض**»[4].

ومما يعرف به العالم شهادة مشايخه له بالعلم، فقد دأب علماء المسلمين من سلف هذه الأمة ومن تبعهم بإحسان على توريث علومهم الذين يتبوأون من بعدهم منازلهم وتصبح لهم الريادة، والإمامة في الأمة، ولا يتصدر هؤلاء التلاميذ حتى يروا إقرار مشايخهم لهم بالعلم، وإذنهم لهم بالتصدر والإفتاء والتدريس.

قال الإمام مالك ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «لاينبغي لرجل يرى نفسه أهلاً لشيء حتى يسأل من كان أعلم منه، وما أفتيت حتى سألت ربيعة[5] ويحيى بن سعيد[6] فأمراني بذلك، ولو نهياني لانتهيت»[7].

---

(1) مفتاح دار السعادة (1/ 140).

(2) الفتاوى (11/ 43).

(3) انظر: قواعد في التعامل مع العلماء للدكتور/ اللويحق، ص 26.

(4) البخاري، كتاب الجنائز، باب ثناء النَّاس على الميت (2/ 132) رقم 1367.

(5) هو ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ، الإمام المفتي، عالم الوقت مفتي المدينة المشهور بربيعة الرأي كان من أهل الاجتهاد، توفي (631 هـ). سير أعلام النبلاء (6/ 89).

(6) هو الإمام يحيى بن سعيد أبو سعيد القطان توفي 891 هـ. تهذيب التهذيب (11/ 61).

(7) صفة الفتوى والمستفتي لابن حمدان، ص 7.

وقال: «...ليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للتحديث والفتيا جلس، حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل، وأهل الجهة من المسجد، فإن رأوه أهلاً لذلك جلس، وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني موضع ذلك»[1]. هذه بعض الدلائل الدالة على علم العالم، أما المناصب ونحوها فليست دليلاً على العلم.

إن العلماء لايحددون ويختارون عن طريق الانتخابات، ولا عن طريق التعيين الوظيفي، أو لمجرد الشهادات الجامعية والدرجات والألقاب العلمية، فكأي من عالم في تاريخ الأمة تصدر وعلا ذكره، وأصبح إماماً للأمة كلها، وهو لم يعرف المناصب، وما الإمام أحمد بن حنبل، أو ابن تيمية إلا مثل من هذا التاريخ الطويل.

وهذا لا يعني أن كل من عين في منصب علمي ليس بعالم، بل المراد أن المنصب ليس دليلاً على العلم، وإلا فإن الشأن عندما يكون الحاكم خيراً، أن يكون الولاة والقضاة والمفتون كذلك، بل قد يوجد في عهد ظالم قضاة عادلون ومفتون ثقات[2].

وهناك ملاحظة مهمة جداً ألا وهي التفريق بين العلماء وبين ما قد يشتبه بهم.

فلابد من التفريق بين العلماء والقراء:

إن هناك بوناً شاسعاً بين القارئ للعلوم الشرعية والفقيه فيها.

إن القارئ لديه نتف وجزئيات أمسك بها من خلال قراءته لبعض الكتب، واطلاعه على أقوال أهل العلم فهو لم يعان العلم، ولم يشافه العلماء، ولم يزاحمهم بالركب في الحلق، ولذلك فإنه وإن رأيته متضلعاً في موضوع من موضوعات الفقه والشريعة إلا أنه يغلق عليه عندما يسأله في مسألة من مسائل العلم[3].

أما العالم الفقيه فليس كأولئك بل هو ذو فهم شمولي عام للإسلام، واطلاع على مجمل الأحكام الشرعية، فهو لم يقرأ نتفاً، بل درس العلوم الشرعية دراسة شمولية عامة، فمر على مسائل العلم واستطاع تخريجها على أصولها وأصبحت لديه ملكة فهم النصوص، وعرف مقاصد الشريعة، وأهدافها العامة.

---

(1) الديباج لابن فرحون، ص 21.
(2) قواعد في التعامل مع العلماء، ص 28.
(3) المصدر نفسه، ص 32.

obeikandi.com

إن علمه لم يأته من قراءة ليلة بل من سهر الليالي ومعاناة الأيام، فشأن العلماء أنهم لا يقفون عند حد في التعلم بل هم دائمو الطلب، دائبو التعلم[1].

ولابد ـ أيضاً ـ من التفريق بين العلماء والمفكرين والمثقفين، إن مفكري الأمة لهم مكانتهم، وبعضهم قد نفع الله عَزَّوَجَلَّ بهم نفعاً كبيراً، ولكنهم مع ذلك لن يغنوا عن العلماء شيئاً إلا في حدود علمهم وقدراتهم، كما أن المثقفين وهم فئة من الأخيار الصالحين ذوي تخصصات علمية برزوا فيها سواء في العلوم التجريبية مثل: الطب والهندسة والكيمياء أو في العلوم المسماة ب: «العلوم الإنسانية» مثل: علم النفس وعلم التربية وعلم الاجتماع، فهؤلاء وإن حُمد لهم تخصصهم في مثل هذه العلوم فصاروا مرجعاً فيها فإنهم غير مختصين في العلوم الشرعية، وهم في الاصطلاح العلمي الشرعي جمهور المسلمين، وعوامهم الذين يجب أن يكونوا وراء العلماء. ويجب أن يرجعوا للعلماء في أمور الشريعة، ويكونوا عوناً لهم في شرح واقع تخصصاتهم، فالطبيب يشرح الأمور الطبية، والاقتصادي يشرح الجوانب الاقتصادية العصرية وهكذا. وإن كلام هؤلاء «المفكرين» والمثقفين يجب أن يكون محكوماً بالشرع، وأما إذا بنى هؤلاء المثقفون و«المفكرون» كلامهم في أمور الشريعة، وأحوال الأمة العامة على أساس من العقول والأهواء، وإطلاق القول بالمصالح دون نظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأقوال العلماء الراسخين، فإنهم بذلك يكونون أشبه بأهل الكلام وقد: «أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ ولا يعدون عند الجميع في جميع الأمصار في طبقات العلماء، وإنما العلماء أهل الأثر والفقه ويتفاضلون فيه بالإتقان والفهم»[2].

ولابد من التفريق بين العلماء والخطباء والوعاظ.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنكم في زمان كثير علماؤه قليل خطباؤه، وإن بعدكم زماناً كثير خطبؤه والعلماء فيه قليل»[3].

إن العالم قد يكون عيياً لا يحسن الكلام، أو هو ـ بطبعه ـ قليل الكلام غير قادر على الخطابة، وقد يكون من العوام من هو بليغ اللسان يقلِّب الألفاظ كيف يشاء.

هذا التفريق مهم جداً فيما بين العلماء الراسخين وممن يشتبه بهم، ولذلك لابد أن يقود العمل الإسلاميّ القادة الربانيون وعلى رأسهم العلماء الراسخون.

---

(1) قواعد في التعامل مع العلماء، ص 33.

(2) جامع بيان العلم لابن عبد البر (2/ 96).

(3) البخاري، كتاب الأدب المفرد، ص 346، ح 789.

إن الشريعة الإسلامية أعطت اعتباراً للعلماء وبنته على أمرين مهمين:

1 ـ أن طاعتهم طاعة لله ـ عز وجل ـ ولرسوله ﷺ، فالتزام أمرهم واجب.

2 ـ أن طاعتهم ليست مقصودة لذاتها بل هي تبع لطاعة الله ورسوله ﷺ.

والأدلة على هذه المنزلة وهذا الاعتبار للعلماء في الشريعة غير منحصرة، فمنها:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء 59].

وقد اختلف المفسرون في «أولى الأمر» من هم على أقوال:

فقيل: هم السلاطين وذوو القدرة.

وقيل: هم أهل العلم.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «يعني أهل الفقه والدين، وأهل طاعة الله الذين يعلمون النّاس معاني دينهم، ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر فأوجب الله ـ سبحانه ـ طاعتهم على عباده»[1].

ويقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «والظاهر ـ والله أعلم ـ أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء»[2].

يقول الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ: «والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول ﷺ، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول ﷺ، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء. ولما كان قيام الإسلام بطائفتي العلماء والأمراء، وكان النّاس لهم تبعاً، كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين، وفساده بفسادهما»[3].

الدليل الثاني: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أوجب الرجوع إليهم وسؤالهم عما أشكل. قال تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنبياء: 7].

---

(1) تفسير الطبري (5/ 149).

(2) تفسير ابن كثير (1/ 518).

(3) إعلام الموقعين (1/ 10) بتحقيق: طه عبد الرؤوف سعد.

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره ـ رحمه الله ـ: «وعموم هذه الآية، فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه: العلم بالكتاب المنزل، فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعية»[1].

الدليل الثالث: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عظم قدرهم فأشهدهم دون غيرهم على أعظم مشهود.

يقول سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران 18].

قال العلامة السعدي ـ رحمه الله ـ في تفسيره هذه الآية: «وفي هذه الآية فضيلة العلم والعلماء، لأن الله خصهم بالذكر من دون البشر وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه، وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة. وفي ضمن ذلك تعديلهم، وأن الخلق تبع لهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون، وفي هذا من الفضل والشرف وعلو المكانة ما لا يقدر قدره»[2].

الدليل الرابع: أنهم أهل الفهم عن الله عز وجل: قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت 43].

إن الأمثال تضرب للناس كلهم ولكن تعقّلها وفهمها خاص بأهل العلم. قال ابن كثير ـ رحمه الله: «وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه»[3]. وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ أي: بفهمها وتدبرها وتطبيقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم.

وهذا مدح للأمثال التي يضربها، وحث على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالِمين»[4].

الدليل الخامس: أن أهل العلم أبصر النّاس بالبشر ومداخل الشر: قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل 27].

---

(1) تفسير السعدي (4/ 206).
(2) تفسير السعدي (1/ 265).
(3) تفسير القرآن العظيم (3/ 414).
(4) تفسير السعدي (6/ 89).

قال الشيخ العلامة السعدي ـ رحمه الله ـ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي العلماء الربانيون ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ أي: سوء العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وفي هذه فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحقّ في هذه الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتباراً عند الله وعند خلقه»[1].

ويقول سبحانه في سياق قصة قارون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص 80].

فأهل العلم هنا كانوا متميزين عن غيرهم، فهم بصراء بالشر وعلماء بالخير، فلمّا رأوا النّاس يتمنون مثل ما أوتي قارون، حذروهم من الشر، وبينوا لهم الخير، وأن الدار الآخرة خير لمن آمن وعمل صالحاً.

ولم يعرف هؤلاء الذين تمنوا حظوظ الدنيا أن العلماء على الحق إلا حينما حلت عقوبة الله بقارون عندها: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص 82].

ولما كان العلماء هم العارفون بالشر صاروا هم الذين ينهون النّاس عن الوقوع فيه، قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة 63].

أي: هلاَّ نهاهم العلماء المتصدون لنفع النّاس عن هذه الشرور العظيمة، وهم ـ أي: العلماء ـ العارفون بالشر ومداخل الشر فكان لزاماً أن يبينوا للناس.

والنّاس عليهم لزوم طاعة العلماء والاستجابة لتحذيرهم من الشر ونهيهم عن المعاصي[2].

هذه بعض الأدلة في القرآن الكريم وأقوال المفسرين فيها ترشدنا إلى أهمية العلماء في قيادة الأمة وقيادة الصفوة التي تقود الأمة.

وقد جاءت الأحاديث النبوية في ترشيد الأمة إلى منزلة العلماء.

الدليل الأول: أن العلماء ورثة الأنبياء، وهم المفضلون بعد الأنبياء على سائر البشر.

---

(1) تفسير السعدي (4/ 196).

(2) انظر: قواعد في التعامل مع العلماء، ص 53.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه[1] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ولكنهم ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»[2]. قال الإمام ابن رجب[3] ـ رحمه الله : «يعني أنهم ورثوا ما جاء به الأنبياء من العلم، فهم خلفوا الأنبياء في أممهم بالدعوة إلى الله وإلى طاعته، والنهي عن معاصي الله والذود عن دين الله»[4].

الدليل الثاني: إن العلماء هم المبلغون عن الأنبياء:

قال الرسول ﷺ: «**تسمعون ويسمع منكم، ويسمع ممن يسمع منكم**»[5].

فبين ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن هذا العلم يؤخذ بالتلقي وكل جيل من أهل العلم يبلغه لمن بعدهم.

وهؤلاء المبلِّغون هم المستحقون لدعوة النبيّ ﷺ: «**نضر الله عبداً سمع مقالتي، فحفظها ووعاها، وأداها، فرُبَّ حامل فقه غير فقيه، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه**»[6].

ولقد جمع العلماء بين نقل أقوال الرسول ﷺ إلى من بعدهم، وفقه تلك الأقوال وفهمها، فالعالم حامل فقه وفقيه.

الدليل الثالث: أن الله أراد بهم الخير:

عن ابن عباس ومعاوية رضي الله عنهم قالا:

قال رسول الله ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»[7].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى:

«وكل أمة ـ قبل مبعث نبينا محمد ﷺ ـ فعلماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم»[8].

---

(1) هو الصحابي الجليل عويمر بن عامر الخزرجي الأنصاري، توفي عام 33 هـ. الإصابة (3/ 46).

(2) رواه أبو داود، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم (3/ 317) رقم 3641.

(3) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي ثم الدمشقي، توفي عام 795 هـ. شذرات الذهب (6/ 339م).

(4) شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم ص 46.

(5) أبو داود، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم (3/ 322) رقم 3659.

(6) أبو داود، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم (3/ 322) 0 366، والترمذي، كتاب العلم، باب الحث على تبليغ السماع وقال «حسن» (5/ 33) 2656.

(7) البخاري، كتاب فرض الخمس، باب قول الله: ﴿فإن لله خمسه﴾ (4/ 60) رقم 3116.

(8) رفع الملام عن الأئمة الأعلام، ص 11.

obeikandi.com

إن الأحاديث في مكانة العلماء كثيرة ونكتفي بهذا القدر.

إن الذين يقودون الأمة بغير علم يفسدون أكثر مما يصلحون، وإن العلماء مثل الماء النافع حيثما سقطوا نفعوا، وليس للناس عوض البتة عن العلماء إلا أن يكون لهم عوض عن الشمس والعافية، ولا أقصد من كلامي هذا وإطنابي في مكانة العلماء ومنزلتهم في الشريعة أن نقدس ذواتهم وأشخاصهم، فنصبح كبني إسرائيل ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة 31].

إن الطاعة عندنا، واعتبار العلماء في شرعنا ليس مقصوداً لذاته بل لما قام فيهم من العلم بالله والعلم عن الله عز وجل: وليس سؤال العامي إياهم سؤالاً عن رأيهم الشخصي، ولا عن حكمهم الذاتي، بل سؤالاً عما يفهمون عن الله ـ عز وجل ـ وعن رسوله ﷺ.

ولابد أن ننبه إلى أمر عظيم، ألا وهو أن بعض المنسوبين إلى الخير والصلاح اليوم يعتبرون للعلماء منزلة وطاعة في بعض جوانب الحياة، ويرون أن هناك جوانب أخرى ليس للعلماء فيها اعتبار وإنما الاعتبار لغيرهم من المفكرين أو الساسة أو الدعاة أو قادة الجماعات أو غيرهم وهذا أمر لا شك أنه غير صحيح؛ لأن العلماء يفهمون السياسة الشرعية، وأمور الجهاد، والهدنة والمصالح والمفاسد وغير ذلك من الأحكام التي تتناول مظاهر الحياة جميعاً.

وعلى المختصين في جوانب الحياة من «الكوادر» الاقتصادية، والسياسية والطبية والعسكرية أن يبينوا واقع تخصصاتهم للعلماء الربانيِّين حتى يطبق العلماء الحكم الشرعي على الوقائع المتجددة.

وهناك ملاحظة مهمة، ألا وهي أن العلماء جاء اعتبارهم عن طريق الشرع فإنه لا يرفع هذا الاعتبار إلا الشرع، فإذا قارف العالم عملاً أو قال قولاً يخرم دينه، ويجعله غير أهل لإمامة الأمة، ولا يستحق أن يكون على رأس قيادتها فإنه يزال عنه اعتبار طاعته وأخذ قوله. وأما إذا كان رفع اعتبار هذا العالم جاء من جهة عدم رضا النَّاس برأيه أو عزله، أو حسد قرنائه له، فإن ذلك ليس هادماً لاعتباره، وإلا لهدمنا اعتبار أئمة الهدى من أمثال أحمد بن حنبل، وابن تيمية، وغيرهم ـ رحمهم الله ـ الذين مرُّوا بأحوال وأزمان لم يعتبر النَّاس لهم فيها رأياً، حتى أيدهم الله بتأييده[1].

(1) انظر: قواعد في التعامل مع العلماء، ص 69.

إن العلماء في مسيرة الحياة الإسلامية دائماً وأبداً يتصدرون شعوبهم وأممهم، وبهم تقام الدول، ويمكَّن لشرعه على أيديهم وإليهم المرجع عند الفتن والملاحم والمحن، فلابدَّ من إعطاء العلماء الربانيين المستوعبين لواقعهم العاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ والملمين بتاريخ الأمم والدول والشعوب دورهم الطبيعي في الأمة عموماً وفي الحركات الإسلامية خصوصاً فهذا من فقه التمكين.

ولاشك أننا اليوم في محنة عظيمة وفتن أليمة كقطع الليل المظلم، ومن شأن الفتن أن تشتبه الأمور فيها، ويكثر الخلط وتزيغ الأفهام والعقول والحكمة حينذاك، إنما هي للجماعة التي يمثل العلماء رأسها، فالواجب على النَّاس، الراعي والرعية، الأخذ برأي العلماء والصدور عن قولهم؛ لأن اشتغال عموم النَّاس بالفتن وإبداء الرأي فيها ينتج عنه مزيد فتنة وتفرق للأمة، فالأمور العامة من الأمن أو الخوف مردها إلى أهل العلم والرأي، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء 83].

إن النَّاس في الفتن يحتاجون إلى فقه المصالح والمفاسد، والعلم بمراتبها فوق حاجتهم إلى لعلم بآحاد النصوص الحاكمة على القضايا المعينة. إذ ليست المنكرات العامة المتعلقة بالسياسة الشرعية ـ وهي في الغالب سبب الفتن ـ كمسائل الطهارة والصلاة والحج والأحوال الشخصية يقوم فيها الحق ـ غالباً ـ على الأدلة التفصيلية، بل قيام العلم في ذلك على أسس منها:

1 ـ الأدلة الشرعية العامة والقواعد التي يدخل تحتها أمور كثيرة.

2 ـ مقاصد الشريعة.

3 ـ الموازنة بين المصالح والمفاسد.

4 ـ الأدلة التفصيلية.

ولا يمكن للعوام، بل وصغار العلم فهم القضايا الكلية العامة، وإن كان يمكنهم فهم النصوص الجزئية. وكذلك فهم مقاصد الشريعة، لا يكون إلا باستقراء مجمل النصوص وتصرفات الشارع، ففقه المقاصد فقه عزيز، لا يناله كل أحد، بل لا يصل إليه إلا من ارتقى في مدارج العلم، واطلع على واقع الحال، وقلَّب النظر في الاحتمالات التي يظن حدوثها.

والموازنة بين المصالح والمفاسد تحتاج إلى فهم للشريعة ومقاصدها وفهم للواقع ومراتب المصالح والمفاسد وهذا كله لا يكون إلا للعلماء[1]. إن تصدُّر العامة الذين لا يفهمون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يشتت المسلمين ويفرق وحدتهم، لأن العوام لا يتصور اتفاقهم على أمر إذا لم يكن لهم سراة يصدرون عن رأيهم، ولذلك كان الرد إلى أهل الحل والعقد.

إن قيام مسألة الإنكار في الأمور العامة هو على فهم مسألة عظيمة، هي الإمكان وعدم الإمكان، وتحديد هذا الإمكان وعدمه ليس إلى جمهور النَّاس وعوامهم بل هو إلى العلماء بشرع الله البُصراء بواقع النَّاس[2].

فلابد من وضع الثقة بالعلماء الربانيين، فكثير من النَّاس يطالب العلماء بعمل من الأعمال هم عنه ممتنعون، وما امتناعهم عنه إلا لنظرهم من مآلات الأمور وعواقبها، إذ بعض المصالح قد يمتنع عن تحقيقه لما يؤدي إليه في المآل من المفاسد العظمى، والدين الإسلاميّ يراعى المصالح، فلا يقر اعتبار مصلحة دنيا على حساب وقوع مفسدة عظمى.

ألا ترى أن قتل المنافق الثابت نفاقه، المعروف باستهزائه بآيات الله وبرسوله ﷺ، وبالمؤمنين أمر مشروع بل هو واجب لثبوت الردة ومفارقة الدين؟

فقد امتنع عنه النبيّ ﷺ لما يفضي إليه هذا القتل من المفاسد، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه[3] أنه قال: كنا مع النبيّ ﷺ في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين! فقال رسول الله ﷺ: «**ما بال دعوى الجاهلية؟**» قالوا: يا رسول الله ﷺ: كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال: «**دعوها فإنها منتنة**» فسمعها عبد الله بن أبي، فقال: قد فعلوها. والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال عمر رضي الله عنه: دعني أضرب عنق هذا المنافق: فقال «**دعه لا يتحدث النَّاس أن محمداً يقتل أصحابه**»[4].

إن النبيّ ﷺ امتنع عن قتل المنافق خشية أن يتحدث النَّاس أن رسول الله ﷺ يقتل أصحابه في وقت كانت الدعوة فيه في طور الانتشار، مما ينفر النَّاس عن الإيمان برسالة

---

(1) انظر: قواعد في التعامل مع العلماء، ص 121.

(2) المصدر السابق، ص 123.

(3) هو جابر بن عبد الله الأنصاري السلمي، من أهل بيعة الرضوان، شهد مع النبيّ ﷺ 19 غزوة. توفي 78هـ، وقيل غير ذلك، انظر: الاستيعاب (2/ 109، 110).

(4) البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المنافقين (6/ 79) رقم 4907.

محمد ﷺ وهذا المحظور أعظم من المصلحة المتحققة بقتل هذا المنافق[1].

إن وضع الثقة في العلماء الربانيين لخطوة مباركة نحو تحكيم شرع الله والتمكين لدينه.

إن القيادة الربانية والتي على رأسها العلماء الذين وصلوا إلى درجة النظر في فقه الإسلام من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هم الذين يجب أن يقودوا العمل الإسلاميّ والدعوة إلى الله.

إن أعداءنا من اليهود والنصارى والملاحدة والعلمانيين أيقنوا أن من أسباب قوة المسلمين التفافهم حول علمائهم وقادتهم، لذلك شنوا هجوماً عنيفاً من أجل زعزعة ثقة الأمة في علمائها وقادتها واستعملوا أساليب متنوعة للتشويه والطعن فيهم؛ لأن العلماء هم الوصلة الحقيقية بين الأمة وقرآنها وسنة نبيها ﷺ.

وقد لاحظ الاستعمار الأوروبي الحديث ذلك، وما الثورات التي فجرت الاستعمار إلا بقيادة العلماء والقادة الربانيين من المغرب إلى المشرق في كل ديار المسلمين.

ولذلك قام اليهود والنصارى والملاحدة بتشويه صورة القادة والعلماء بواسطة المسرح، والتلفاز، والمجلة والجريدة والنوادي والغناء وكل وسائل الإعلام وإذا أردت أن تعرف هجومهم الإعلامي ابتداء من العقود الماضية، فلتراجع كتاب: «المشايخ والاستعمار» للأستاذ حسني عثمان، فإنه بين أن القيادة الحكيمة وهي تسعى لتحكيم شرع الله تعالى، وإقامة دولة الإسلام توقن إيقاناً جازماً أن المجتمع لن يكون إسلامياً بجرة قلم، أو بقرار يصدر من ملك أو رئيس، أو مجلس قيادة أو برلمان.

إنما يتحقق ذلك بطريق التدرج، والإعداد والتهيئة الفكرية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية، وإقامة البدائل الإسلامية للأوضاع الجاهلية التي تأسست عليها مؤسسات عدة لأزمنة مديدة، فهي تعيِّن الهدف، وتضع الخطة، وتحدِّد المراحل، بوعي وصدق، بحيث تنتقل من مرحلة إلى مرحلة بتخطيط وتنظيم وإرادة قوية معتمدة على الله تعالى حتى تصل المسيرة إلى مرحلة التمكين الفعلي لدولة الإسلام المنشودة.

إن القيادة الربانية الحكيمة والتي تسعى لتحكيم شرع الله تعطي للعلوم بأنواعها أهميتها وخصوصاً علوم الشرع وتركز على علم المقاصد، وفقه الموازنات، وفقه الخلاف، وفقه الأولويات، وفقه السنن الربانية لأهميتها في زماننا هذا، بل هي من أفضل العدة بعد تقوى الله تعالى للعاملين من أجل تحكيم شرع الله.

---

(1) انظر: قواعد في التعامل مع العلماء، ص 180.

obeikandi.com

إن القيادة الربانية الحكيمة هي التي تفجر طاقات الأمة وهي التي تحتضن الإسلام وتنتهجه قلباً وقالباً، جوهراً ومنظراً، وعقيدة وشريعة، وديناً ودولة، وهي التي تصبح وتمسي وهمها عقيدتها وأمتها، وهي التي تسعى بكل ما تملك لحل المشاكل التي تواجهها وتعمل بكل جهد وإخلاص للقضاء على عوائق التمكين الداخلية والخارجية.

ثالثاً: محاربة أسباب الفرقة:

إن الانحراف عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهدى الصحابة والتابعين له أسباب كثيرة، منها خارجية أجنبية، ومنها داخلية ذاتية.

ومن أهم الأسباب الخارجية:

1 ـ اتساع الفتوحات الإسلامية، واختلاط المسلمين بالشعوب والأمم الأخرى، وتأثرهم بأفكارها وثقافاتها.

2 ـ دخول كثير من أبناء الشعوب الأخرى في الإسلام ولم ينصهروا في عقيدة الإسلام وتصوراته كما ينبغي، وحملوا معهم موروثاتهم القديمة ونشروا شبهاتهم بين المسلمين.

3 ـ اندساس بعض الملاحدة واليهود والمجوس وغيرهم من أصحاب المعتقدات المنحرفة في الإسلام بقصد الكيد له، والنيل منه وبغية هدمه وتحريفه وتبديله وذلك بإبعاد المسلمين عن دينهم الصحيح بالتشكيك وإثارة الشبهات، وابتداع العقائد المخالفة لهدي الإسلام الصحيح، ونشروا معتقدات فاسدة، ومناهج منحرفة، ومن أمثلة هؤلاء[1]:

ـ **عبد الله بن سبأ[2] اليهودي** الذي تظاهر بالإسلام في خلافة عثمان رضي الله عنه، وسعى في الأمصار يدس أفكار الغلو في علي رضي الله عنه ابتداء بأنه هو وصي رسول الله ﷺ وانتهاء بادعاء الألوهية فيه، وغير ذلك من الاعتقادات التي كانت أساس الرفض[3].

ـ **وبشر المريسي[4] اليهودي**: الذي كان له دور كبير في فتنة خلق القرآن، وتعطيل

---

(1) انظر: وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق للدكتور/ جمال بادي، ص 135، 136.

(2) عبد الله بن سبأ اليهودي قيل: أصله من صنعاء وقيل غير ذلك، رأس الطائفة السبئية التي كانت تقول بألوهية علي رضي الله عنه أظهر الإسلام ونشر الفتنة بين المسلمين وتذرع بحب آل البيت وكانت له مصائب عظيمة على المسلمين، توفي عام 40 هـ.

(3) انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري (1/ 86).

(4) هو بشر بن غياث بن أبي كريمة المريسي العدوي بالولاء، فقيه معتزلي، عارف بالفلسفة، رمي بالزندقة، توفي عام 18 2 هـ. ميزان الاعتدال (1/ 323).

صفات رب العالمين[1] وغيرهم كثير من أهل الزيغ والضلال، ممن نشروا البدع، والمعتقدات الفاسدة، والتصورات المنحرفة، ولا شك أن الأسباب الخارجية ساهمت في فرقة الأمة وتمزيق وحدتها وهي من الموضوعات المتشعبة والطويلة والتي لابد من دراستها دراسة عميقة متأنية تكشف من خلالها أسبابها وأثرها في الأمة مثل: غزو المغول، والحملات الصليبية، وترجمة الفلسفات اليونانية والهندية... إلخ وعلى الرغم من أهمية الأسباب الخارجية فإن الأسباب الداخلية كان لها الأثر الأكبر في إحداث الفرقة وتقسيم صف الجماعة المسلمة، وتنقسم الأسباب الداخلية إلى أسباب عامة[2]، وأسباب منهجية، وأهم الأسباب العامة هي:

1 ـ الابتداع.

2 ـ الجهل.

3 ـ اتباع الهوى.

4 ـ تحكيم العقل وتقديمه على النصوص.

5 ـ الهجوم القبيح على أهل السُّنَّة.

وأما الأسباب المنهجية فجامعها مخالفة منهج أهل السُّنَّة في النظر والاستدلال[3].

أ ـ الابتداع:

تعريف البدعة لغة واصطلاحاً:

لغة: تطلق البدعة في اللغة على الشيء المخترع على غير مثال سابق، ويقال لمن أتى بأمر لم يسبقه إليه أحد: أبدع، وتبدَّع أي: أتى ببدعة[4]، فهي تطلق على الأمر المحدث سواء كان محموداً أو مذموماً.

أما اصطلاحاً: طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه وتعالى.

---

(1) انظر: وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق، ص 136.

(2) نص الشاطبي على أن أسباب الوقوع في الاختلاف ثلاثة أمور، هي: الجهل، واتباع الهوى، والتصميم على اتباع العوائد وإن فسدت أو كانت مخالفة للحق. الاعتصام (2/ 172 ـ 180).

(3) انظر: وجوب لزوم الجماعة وذم التفرق، ص 137.

(4) القاموس المحيط للفيروز آبادي (3/ 3، 4)، الصحاح للجوهري (3/ 1183).

يتبين من التعريفات السابقة أن المعنى اللغوي أعم وأشمل من المعنى الشرعي.

ولا شك أن الابتداع في الدين من أعظم أسباب التفرق، بل هو أعظمها وكان من العوامل التي ساهمت في القضاء على وحدة الأمة الإسلامية، وشتتت شملها، وحادت بسببه فرق كثيرة عما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه. إن المجتمع المسلم كان متوحداً متآلفاً، حتى خرجت البدع على النَّاس بسمومها وروائحها الكريهة، فقوضت بنيان الأمة، وشتتت شملها، ونخرت في كيانها، كما نخر السوس في الحب، وسرت في جسم الأمة كما يسري السرطان في الدم، أو النار في الهشيم، فلذلك نرى من أسباب التمكين للأمة ووحدة الصف محاربة البدع وذمها وتنفير المسلمين منها، وبيان مضارها وأخطارها وسوء منقلب أهلها.

ولقد سار علماء الأمة على مر العصور، وكر الدهور، وتوالي الأزمان على هذا النهج في محاربة البدعة، وإماتتها، وإظهار السُّنَّة وإحيائها.

ومن الأمور التي تظهر خطورة البدعة فيها، ما يصيب الأمة بسببها من العداوة والبغضاء والشحناء.

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «والبدعة مقرونة بالفرقة، كما أن السُّنَّة مقرونة بالجماعة»[1].

ويقول الدكتور توفيق الواعي: «ومن سمات أهل البدع مفارقة الجماعة وشق عصا الطاعة على جماعة المسلمين؛ لأن الأهواء نزعات وسبل تفرق الجادة»[2].

إن البدع أصابت الأمة في وحدة صفها واجتماع شملها وقوة بنيانها، ولقد أرشدنا القرآن الكريم وأرشدتنا السُّنَّة النبوية إلى التمسك بحبل الله المتين ونوره المبين وترك البدع والإحداث في الدين:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام 153].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد.**»[3].

إن محاربة البدع والتمسك بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه والاقتداء بهم طريق

---

(1) الاستقامة (1/ 42).
(2) البدعة والمصالح المرسلة ص 214.
(3) البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح (3/ 22) رقم 2697.

الوحدة واجتماع كلمة الأمة، وقوة بنيانها، ورصانة دعائمها، ومتانة قواعدها لإرجاع مجدها وعزتها ومن أهم الأسباب للتمكين لهذا الدين.

ب ـ الجهل:

إن الجهل من أعظم أسباب الوقوع في المحرمات جميعها من كفر وفسوق وعصيان، ومن أعظم الجهل القول على الله بغير علم، وقد جعله الله عز وجل أعلى مراتب المحرمات وأعلى درجة من الإشراك به سبحانه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: 33].

يقول ابن القيم ـ رحمه الله: «وأصل الشرك والكفر، هو القول على الله بلا علم»[1].

وقد نهى الله عباده أن ينسبوا إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عند أنفسهم، ليس لديهم فيه حجة من الله ولا برهان فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: 116].

فافتراء الكذب على الله عز وجل أمر خطير وعظيم، فهو تعد على جانب الألوهية، وتطاول على الله عز وجل، وفيه إضلال للعباد، وصدٌّ لهم عن دين الله الحق، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ [الأنعام: 144].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: 59].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 111].

وقال تعالى: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: 4].

وهذه تربية للمؤمنين، ودعوة للناس أجمعين، بأن يأخذوا الحق ويبحثوا عنه من مصدره الصحيح، وهو الوحي فقط لا غير، وأن أي شيء لم يقم عليه دليل ولا برهان من وحي الله فإنه باطل مرفوض. وإذا انتقلنا إلى السُّنَّة النبوية، وجدنا إخبار النبيّ ﷺ أن من أشراط الساعة

(1) مدارج السالكين (1/ 373).

obeikandl.com

قبض العلم وظهور الجهل، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل**»(1).

وقال ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ النَّاس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضَلُّوا وأضلُّوا**»(2).

وقال النووي ـ رحمه الله ـ: «هذا الحديث بين أن المراد بقبض العلم في الأحاديث السابقة المطلقة ليس هو محوه من صدور حفاظه، ولكن معناه أن يموت حملته ويتخذ النَّاس جهالاً بجهالاتهم فيَضِلُّون ويُضِلُّون»(3).

إن الجهل من الأسباب المؤدية إلى الاختلاف والتفرق والابتعاد عن الحق والبعد عنه ورده وبالتالي تأخير نصر الله وتمكين دينه في الأرض، ولذلك لابد من معرفة أسباب الجهل ومن ثم معالجتها، ومن أخطر الأمور أن يكون على مقدمة الحركة الإسلامية قيادة تجهل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولاتعطي للعلماء أي وزن أو اهتمام بل تعمل على تهميشهم والنيل منهم، وتجعل من عقولها وأهوائها مصادر للاجتهادات الحركية والفكرية والسلوكية، ومن المعلوم أن ما سوى الشرع موزون وليس بميزان، ومحكوم وليس بحاكم، ولذلك وقع كثير من العقلانيين ومن المتصوفة وغيرهم في التخبط والضلال والبدع وبالتالي ساهموا في تفريق الأمة وتشتيتها وإبعادها عن تحكيم شرع ربها.

والدواء النافع للجهل هو العلم وقد وردت نصوص كثيرة من الكتاب والسُّنَّة في الحث على طلبه والثناء على أهله وذكر فضله(4).

جـ ـ الهوى:

عرَّف أهل اللغة الهوى بأنه: «محبة الإنسان للشيء وغلبته على قلبه»(5).

وأما في الاصطلاح: ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع(6).

---

(1) البخاري، كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل (1/ 33) رقم 80.
(2) البخاري، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم (1/ 39) رقم 100.
(3) مسلم بشرح النووي، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه (2/ 236، 337) رقم 2136.
(4) انظر: وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق، ص 171.
(5) لسان العرب (15/ 371).
(6) التعريفات للجرجاني ص 257.

ويعتبر اتّباع الهوى من أهم الأسباب في نشأة الكثير من الفرق الضالة، والطوائف المنحرفة؛ لأن أصحاب هذه الفرق قدّموا أهواءهم على الشرع أولاً، ثم حاولوا جاهدين أن يستدلُوا بالشريعة على أهوائهم، وحرفوا النصوص والأدلة لتوافق ما هم عليه من البدع، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها، بل اعتمدوا على آرائهم وعقولهم في تقرير ما هم عليه، ثم جعلوا الشريعة مصدراً ثانوياً، نظروا فيها بناء على ما قرروه وأصّلوه، ولأجل ذلك كان علماء السلف الصالح يطلقون على أهل البدع وفرق الضلالة لفظة «أهل الأهواء»[1] بل كانوا يطلقونها على كل من خرج عن موجب الكتاب والسُّنَّة من العلماء والعباد[2].

ولذلك فكل مخالف لما بعث الله به رسوله ﷺ من الأوامر والنواهي، والعبادات، والطاعات إنما يكون متبعاً لهواه، ولا يكون متبعاً لدين وشرع الله تبارك وتعالى[3].

والهوى من الأسباب التي لأجلها خالفت كثير من الأمم أنبياءها فاستكبروا ولم يقبلوا الحق والهدى والنور الذي جاءتهم به أنبياؤهم، عليهم السلام.

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: 70].

إن الله تعالى ذكر داود عليه السلام وبين في كتابه أسباب المحافظة على التمكين وذكر من ذلك الابتعاد عن الهوى قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: 26].

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «ونفس الهوى ـ وهو الحب والبغض الذي في النفس ـ لا يلام عليه، فإن ذلك قد لا يملك، وإنما يلام على اتباعه»[4].

وقال في موضع آخر: «ومجرد الحب والبغض هوى، لكن المحرم اتباع حبّه وبغضه بغير هدى من الله»[5].

---

(1) انظر: الاعتصام (2/ 176).
(2) انظر: الفتاوى (28/ 133).
(3) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب، ص 36.
(4) الفتاوى (28/ 131).
(5) الفتاوى (28/ 133).

إن اتباع الهوى من أسباب الفرقة، والفرقة من أسباب تأخر التمكين، فإذن فعلى المخلصين من أبناء الأمة الإسلامية، الحريصين على تحكيم شرع الله تعالى، محاربة الهوى وقلع جذوره وأسبابه من النفوس.

إن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بأن يتقوه بفعل ما أمرهم به من الاجتماع على دينه متحابين متعاونين على الخير، وألا يموتوا إلا وهم مستسلمون لأمره منقادون لطاعته مبتعدون عن معصيته.

إن محاربة الأهواء طريق نحو الاجتماع والائتلاف، ونحو الأخذ بأسباب التمكين لهذا الدين.

إن اتباع الأهواء شتت جهوداً ضخمة في العمل الإسلاميّ، وأمرض قلوباً كانت حية.

إن العلاج الناجع والبلسم الشافي لمن ابتلي بشيء من الهوى، إلزام النفس بالكتاب والسُنَّة، واتباع منهج السلف الصالح وتربية النفس باستمرار على التقوى والخشية من الله تعالى، واتهام النفس ومحاسبتها دائماً فيما يصدر منها وعدم الاغترار بأهوائها وتزييناتها وخداعها، والإكثار من استشارة أهل العلم والإيمان واستجلاء آرائهم حول ما يريد أن يقوله ويفعله وكذلك ترويض النفس على استنصاح الآخرين وتقبل الآراء الصحيحة الصائبة وإن كانت مخالفة لما في النفس، وتعويدها على التريث وعدم الاستعجال في إصدار الأحكام وإمضاء الأعمال، والحذر من ردود الأفعال التي قد يكون فيها إفراط وتفريط وغلو أو تقصير، وجهل وبغي وعدوان، وإكثار المرء من الدعاء والتضرع إلى الله تعالى بأن يجنبه اتباع الهوى ومضلات الفتن ويسأله تعالى أن يوفقه لقول كلمة الحق في الغضب والرضا. ويكثر من الدعاء الذي علمه رسول الله ﷺ لأمته: «**وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب**»[1]، ومن قوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء**»[2].

د ـ تقديم العقل وتحكيمه على النصوص:

إن المدرسة العقلية وعلى رأسها المعتزلة حكمت العقل، وجعلته مصدراً أولياً للتلقي ودخلت بالعقل في غير مجاله وركبوا مسلك أهل الكلام ودخلوا في جدل مع الفلاسفة في

---

(1) النسائي، كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر (3/ 55) وصححه الألباني.

(2) رواه الترمذي وصححه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي (3/ 183).

قضايا الإيمان، والأسماء والصفات والغيبيات، وابتعدت الأمة عن أوامر الله، ودخلوا في مجال الترف الفكري وتأثر كثير من العلماء بكتب اليونان وعلومهم الفلسفية، وأعرضوا عن منهج الاستدلال المستمد من الكتاب والسُّنَّة والذي سار عليه الأسلاف والأئمة الثقات، ونشأت فرق كلامية متعددة كل فرقة تَزِد على الأخرى، وحادت عن الصراط المستقيم، ووقعت هي الأخرى في أخطاء كثيرة وجسيمة نتيجة استعمالها المنهج العقلاني نفسه في الرد على الخصوم، وعدم اعتمادها على المنهج الرباني الذي يقول الله فيه: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان 33].

ولو تمسك الجميع بالكتاب والسُّنَّة وجعلوهما المصدر الوحيد للتلقي، وأعرضوا عمَّا خالفهما، واتَّبعوا منهج سلف الأمة في فهم أحكام الدين، أصوله وفروعه، لما حصل الذي حصل، ولكن ما وقعوا فيه كان نتيجة حتمية لتحكيم العقل في مجال غير المجال الذي خلق له.

يقول الشاطبي: «إن الله جعل للعقول في إدراكها حداً تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك في كل مطلوب»[1].

إن العاقل اللبيب هو الذي يعرف حقيقة ما أنعم الله عليه من نعمة العقل فلا يدخله في مسالك ودروب لم يخلق لها، وإنما يستعمل عقله في عمارة الأرض والكون والحياة، ويتأمل ويتدبر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وينتهج منهج القرآن في معرفة حقيقة العقل ومكانته ودوره، فلا يتقدم على أحكام الشرع أبداً، بل ينقاد إليها انقياداً حكيماً رزيناً مسترشداً بنور الوحي الذي يحرر العقل من الخرافات والخزعبلات، ويحثه على النظر في الكون والتحرر من التقليد والهوى والتعصب.

إن إقحام العقل في غير مجاله كما فعل أهل الكلام والأهواء شتت الأمة وفرقها وجعلها تبتعد عن كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ . ولقد تخبط كثير من علماء الكلام في دياجير الظلام وحيرة العقول حتى منَّ الله عليهم وألهمهم رشدهم في آخر حياتهم فتابوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ وندموا على ما كان منهم وتحسَّروا على إضاعة أعمارهم في القيل والقال، واعترفوا بخطأ الطريق الذي ساروا فيه، وأن منهج القرآن والسُّنَّة الذي سلكه السلف الصالح هو أفضل السبل على الإطلاق ونذكر من هؤلاء الأعلام:

(1) الاعتصام (2/ 318).

1 ـ الجويني[1] رحمه الله :

لقد ذم علم الكلام في آخر حياته ونصح الأمة أن يجتنبوه، حيث قال: «لا تشتغلوا بعلم الكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به»[2].

2 ـ أبو حامد الغزالي[3]:

نصر مذهب السلف في آخر حياته وقال: «الدليل على أن مذهب السلف هو الحق، أن نقيضه بدعة، والبدعة مذمومة وضلالة»[4].

وذمه لعلم الكلام، حيث قال: «إن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمد ﷺ، فما زادوا على أدلة القرآن شيئاً، وما ركبوا ظهر اللِّجاج في وضع المقاييس العقلية وترتيب المقدمات، كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن ومنبع التشويش ومن لا يقنعه أدلة القرآن، لا يقمعه إلا السيف والسنان، فما بعد بيان الله بيان»[5].

إن المنهجية الخاطئة التي قدمت العقل على النقل أدت إلى فساد النتائج وبالتالي إلى ظهور الفرق واختلاف المناهج والتصورات والقيم والمعتقدات، وكل ذلك أثر في وحدة الأمة وساهم في تمزيقها وتشتيتها وتفريقها وإضعافها وزوال هيبتها وملكها وسلطانها، ولذلك أرى أن محاربة المدارس الكلامية والنزعات الفلسفية ودعوة النَّاس إلى الالتزام بكتاب الله وسنة سيد الأنام ﷺ من أسباب التمكين.

هـ ـ التقليد والتعصب والحرص على اتباع العوائد:

1 ـ تعريف التقليد لغة واصطلاحاً:

التقليد لغة: هو جعل القلادة في العنق[6].

اصطلاحاً: هو الرجوع إلى قول لا حجَّة لقائله عليه[7].

---

(1) هو إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف أبو المعالي ركن الدين، كان من أذكياء العالم، توفي عام 478 هـ. انظر: العبر (2/ 339).

(2) طبقات الشافعية للسبكي (3/ 260).

(3) هو محمد بن محمد الغزالي الطوسي، له مائتا مصنف، توفي عام 505 هـ. شذرات الذهب (3/ 10).

(4) إلجام العوام عن علم الكلام، ص 96.

(5) المصدر نفسه ص 89، 90.

(6) الصحاح للجوهري (2/ 527).

(7) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (2/ 117).

2 ـ تعريف التعصب لغة واصطلاحاً:

التعصب لغة: من العصبية. وتعصَّب، أي: شدَّ العصابة[1].

أما اصطلاحاً: بأن تجعل ما يصدر عن شخص ما من الرأي، ويُروى له من الاجتهاد حجة عليك وعلى سائر العباد[2].

إن التقليد والتعصب من أعظم أسباب التفرق والانحراف عن منهج الله الرباني، ومن أهم العوامل التي أدَّت إلى انتشار البدع والأهواء بين النَّاس، ففشت في أوساطهم، وحالت بينهم وبين سماع الحق والهدى، وتركوا بسببها طريق الكتاب الكريم والسُّنَّة المطهرة.

وقد ذم الله تعالى الذين يعرضون عن اتباع الحق والانقياد له، بحجة تقليد الآباء والأجداد فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170].

إن التقليد المذموم إنما هو التقليد في الباطل، وأما التقليد في الحق فهو في الحقيقة اتباع لا تقليد.

ومن الآيات التي جاءت أيضاً في ذم التقليد وأهله قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: 104].

قال ابن كثير: «أي إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه وترك ما حرمه قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك»[3].

فالتقليد الأعمى والتعصب، يؤديان إلى مهاوى الردى ويقودان صاحبهما إلى مسالك الغواية والضلال، ويصدّان عن اتباع النور والهدى، فتكون النتيجة تخبطاً وانتكاساً في الدنيا، وهلاكاً وخسراناً في الآخرة[4].

لقد انتشر مرض التعصب والتقليد في شعوب الأمة الإسلامية، لاسيما في العصور المتأخرة، وأصبح هو الأساس والأصل، ونتج عن تفشيه نتائج وخيمة وأمور جسيمة.

---

(1) الصحاح للجوهري (1/ 182).
(2) أدب الطلب ومنتهى الأرب للشوكاني، ص 7.
(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (2/ 213).
(4) في ظلال القرآن (2/ 991) بتصرف.

يصف الإمام الشوكاني ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ حال الأمة الإسلامية عندما انقادت للتقليد واتبعت العوائد السيئة فيقول: «وبهذه الذريعة الشيطانية، والوسيلة الطاغوتية، بقي المشرك من الجاهلية على شركه، واليهودي على يهوديته والنصراني على نصرانيته والمبتدع على بدعته، وصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وتبدّلت الأمة بكثير من المسائل الشرعية غيرها، وألفوا ذلك ومرنت عليه نفوسهم وقبلته قلوبهم وأنسوا إليه، حتى لو أراد من يتصدى للإرشاد أن يحملهم على المسائل الشرعية البيضاء النقية التي تبدّلوا بها غيرها لنفروا عن ذلك، ولم تقبله طبائعهم، ونالوا ذلك المرشد بكل المكروه، ومزقوا عرضه بكل لسان، وهذا كثير موجود في كل فرقة من الفرق لا ينكره إلا من هو منهم في غفلة»[1].

إن نتائج التعصب والتقليد جسيمة وخطيرة ومن أشدها عدم قبول الحق، وردّه إذا جاء من المخالف، وهذا إلى جانب كونه مؤدياً إلى العداوة والبغضاء والتفرق، فهو خصلة ذميمة من خصال اليهود، والذين أمرنا الله تعالى ورسوله ﷺ بمجانبة طريقهم وعدم التشبه بهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: 91].

إن محاربة التعصب والتقليد هو في حقيقته محاربة لأسباب الفرقة وبالتالي خطوة نحو الأخذ بأسباب التمكين، فعلى العاملين في مجال الدعوة أن يعالجوا هذه الأمراض المعضلة من التعصب والتقليد واتباع العوائد السيئة التي كانت سبباً في تفريق الأمة شيعاً وأحزاباً.

هذه هي أهم الأسباب التي كان لها أثر مباشر في فرقة الأمة وهناك أسباب أخرى ولكن اكتفينا بالأهم خوفاً من الإطالة.

رابعاً: الأخذ بأصول الوحدة والاتحاد والاجتماع:

إذا كانت الفرقة هي طريق الانحطاط، فإن الوحدة هي سبيل الارتقاء وتبوُّؤ المكانة الفاضلة من جديد.

إن اتحاد الأمة الإسلامية على أسس من ديننا العظيم أمل كل المسلمين الصادقين في كل مكان، ذلك أن الإسلام هو الذي جعل من العرب المتناحرين أخوة في دين الله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات 10]، كما أن الإسلام بعقيدته الصحيحة وعبادته الصادقة،

(1) الدّر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد للشوكاني، ص 28، 29.

وأخلاقه الرفيعة، صهر الأمم والشعوب والحضارات التي دخلت فيه وجعل منهم أمة واحدة مترابطة ترابط الجسد الواحد لا فرق بين الفارسي ولا البربري، ولا الرومي ولا العربي إلا بالتقوى.

وأصبحت أمة الإسلام أمة واحدة في عقيدتها وتصوراتها ومنهجها، وانعكس ذلك في توادهم وتراحمهم فيما بينهم وأصبحوا كالجسد الواحد، الذي يخفق فيه قلب واحد، وتسري فيه روح واحدة، ويتأثر كل عضو فيه بما يصيب بقية الأعضاء، أو هو كالجدار المتين الذي تجتمع لبناته لتشكل فيما بينها وحدة واحدة متماسكة متراصة.

وفي اعتقادي أن من الأهمية بمكان أن تهتم الحركات الإسلامية في كل الأقطار بالأصول المهمة التي يجتمع عليها المسلمون في كل بلد ومن ثم تجتمع عليها الأمة حتى يكون الاتحاد على أصول قوية ثابتة.

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران 103].

إن طريق الوحدة والتعاون والتآخي والاجتماع على البر والتقوى طريق أهل السُّنَّة والجماعة الذين التزموا في كافة أمورهم بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه في العقائد والأخلاق والعبادة والمعاملات وكافة شؤون الحياة، وأهم أسس وأصول أهل السُّنَّة والجماعة هي:

لاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، وحصر التلقي لأحكام الدين، أصوله وفروعه، في هذا المصدر، وأن يرد الخلاف إليهما عند التنازع، وألا يُعارضا بشيء من المعارضات، لا بمعقول ولا رأي، ولا قياس، ولا ذوق، ولا وجد، ولا مكاشفة، ولا منام، ولا غير ذلك[1].

إن الكتاب والسُّنَّة هما الميزان الذي توزن به الأقوال والأعمال والمعتقدات. وهما الحق الذي يجب اتباعه، وبه يحصل الفرقان بين الحق والباطل، وماسواه من كلام النَّاس يعرض عليه. فإن وافقه قبل، وإلا رُدّ على صاحبه[2].

إن أهل السُّنَّة والجماعة يحتجون بالقرآن والسنة، ولا يفرقون بينهما، كما هو حال أهل

(1) انظر: مجموع الفتاوى (13/ 28، 29).
(2) المصدر السابق (11/ 582)، (12/ 467 ـ 468).

البدع، فالسُّنَّة مبينة للقرآن موضحة له، ولا يمكن أن يستغنى عنهما بالقرآن وحده بحال من الأحوال، وهي حجة في العقائد كما أنها حجة في الأحكام.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يرضى لكم ثلاثاً، أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاّه الله أمركم**»[1].

إن طريق الاعتصام بحبل الله أن نلتزم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهذا الأصل من آكد أصول هذا الدين العظيم، يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وهذا الأصل العظيم: وهو الاعتصام، مما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمُّه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبيّ ﷺ، في مواطن عامّة وخاصة»[2].

ولذلك أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بكل ما يحفظ على المسلمين جماعتهم وألفتهم، ونهيا عن كل ما يعكر صفو هذا الأمر العظيم. إن ما حصل من فرقة بين المسلمين وتدابر وتقاطع، وتناحر، بسبب عدم مراعاة هذا الأصل وضوابطه مما ترتب عليه تفرق في الصفوف، وضعف في الاتحاد، وأصبحوا شيعاً وأحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون.

وهذا الأمر وإن كان مما قدّره الله عز وجل كوناً، ووقع كما قدّر، إلا أنه ـ سبحانه ـ لم يأمر به شرعاً، فوحدة المسلمين واجتماعهم مطلب شرعي، ومقصد عظيم من مقاصد الشريعة بل من أهم أسباب التمكين لدين الله تعالى ولن يغير الله ما بنا حتى نغير ما بأنفسنا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد 11]. فلابد من تضافر الجهود بين الدعاة، وقادة الحركات الإسلامية، وبين علماء المسلمين، وطلبة العلم، لإصلاح ذات البين إصلاحاً حقيقياً لاتلفيقياً، لأن أنصاف الحلول تفسد أكثر مما تصلح. قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ: «الجهاد نوعان: جهاد يقصد به صلاح المسلمين، وإصلاحهم في عقائدهم وأخلاقهم وآدابهم، وجميع شؤونهم الدينية والدنيوية، وفي تربيتهم العلمية، وهذا النوع هو الجهاد وقوامه، وعليه يتأسس النوع الثاني، وهو جهاد يقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين من الكفار والمنافقين والملحدين وجميع أعداء الدين ومقاومتهم، وهذا نوعان: جهاد بالحجة والبرهان واللسان، وجهاد بالسلاح المناسب في كل وقت وزمان»[3].

---

(1) أخرجه الإمام أحمد (1/ 8، 26).

(2) مجموع الفتاوى (22/ 359).

(3) وجوب التعاون بين المسلمين، ص 5.

ثم أفرد فصلاً بعنوان: «الجهاد المتعلق بالمسلمين بقيام الألفة واتفاق الكلمة»[1]. وبعد أن ذكر الآيات والأحاديث الدَّالة على وجوب تعاون المسلمين ووحدتهم قال: «فإن من أعظم الجهاد السعي في تحقيق هذا الأصل في تأليف قلوب المسلمين، واجتماعهم على دينهم ومصالحهم الدينية والدنيوية»[2].

أسباب وحدة المسلمين

ولذلك نرى أن الأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين وتوحيد صفهم من أعظم الجهاد، لأن هذه الخطوة مهمة جداً في إعزاز المسلمين وإقامة دولتهم، وتحكيم شرع ربهم.

ومن أهم الأسباب في تحقيق هذا الهدف المنشود أن يجتمع المسلمون على أصول ثابتة:

أ ـ وحدة العقيدة:

لايمكن أن تقوم وحدة للمسلمين مالم تجمعهم عقيدة واحدة. والعقيدة تشكل أساساً مهماً في البناء الفردي والاجتماعي وهي القاعدة التي تقوم عليها الأعمال والعلاقات والأخلاق، فإذا كانت العقيدة مشوَّهة أو مزورة فإن البناء لا يستقيم، ولا يستطيع أن يواجه الأعاصير والفتن حتى ينهار.

وإن العقيدة التي تصلح لجمع شتات المسلمين هي ما كان منبعها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويمكن التدليل على كل أصل من أصولها، أو جزئية من جزئياتها، ثم إن السلف الصالح الذين استقاموا على عقيدة الإسلام الحق دوَّنوا هذه العقيدة تدويناً يميزها عن عقائد أهل الفرق والضلال[3].

إن سلامة الاعتقاد وصحته هي الطريق الوحيد لإقامة المجتمع المسلم المترابط المتآلف، ولا سبيل إلى اجتماع الأمة الإسلامية قاطبة، ووحدة صفها، وعزّها وسعادتها في الدنيا والآخرة إلا بالعودة الصحيحة إلى الإسلام الصافي النقي، الخالص من شوائب الشرك والبدع والأهواء والتعصب واتباع العوائد الفاسدة، وهذا يتطلب من كل مسلم أن ينبذ كل المذاهب والمناهج الحادثة المخالفة لما كان عليه سلف الأمة، وأن تكون له عناية فائقة بمذهب السلف الصالح، وعقيدتهم ومنهجهم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وإذا تأمَّل اللَّبيب الفاضل هذه الأمور[4] تبين له أن

---

(1) وجوب التعاون بين المسلمين، ص 5.
(2) المصدر نفسه.
(3) كيف تستعيد الأمة الإسلامية مكانتها من جديد، للدكتور الأشقر، ص 69.
(4) يقصد اختلاف أهل البدع في مسائل الاعتقاد.

مذهب السلف والأئمة في غاية الاستقامة والسَّداد، والصِّحة والاطِّراد، وأنه مقتضى المعقول الصَّريح، والمنقول الصَّحيح، وأن من خالفه كان مع تناقض قوله المختلف الذي يؤفك عنه من أفك خارجاً عن موجب العقل والسَّمع، مخالفاً للفطرة والسَّمع»[1].

إن طريق التمكين لابد فيه من وحدة الصف الإسلاميّ، ووحدة الصف ليس لها من سبيل إلا الإسلام الصحيح. والإسلام الصحيح مصدره القرآن والسُّنَّة، والطريق لفهم القرآن والسُّنَّة هي طريق رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، والتابعين بإحسان، ومن سار على نهجهم وطريقتهم إلى يوم الدين، وإليك بعض الأدلة:

1 ـ من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء 115].

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة 100].

فوعد من اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد متبعهم بالجنة والرضوان.

2 ـ من السُّنَّة:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير النَّاس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته**»[2].

3 ـ ومن أقوال السلف الصالح:

عن ابن مسعود رضي الله عنه: «اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كفيتم»[3]. وعنه رضي الله عنه: «من كان متأسياً فليتأسى بأصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم»[4].

---

(1) مجموع الفتاوى (5/ 212، 213).
(2) مسلم، كتاب الصحابة، باب فضل الصحابة (4/ 1963) رقم 2533.
(3) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب النهي عن القول بالقدر، رقم 1619.
(4) حلية الأولياء (1/ 379).

ب ـ تحكيم الكتاب والسُّنَّة:

إن المسلمين لا يكون لهم شأن، ولا عزّ، ولا نصر، ولا فلاح في الدنيا، ولا نجاة في الآخرة، إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، على مستوى الأفراد، والأسر والجماعات، والقبائل ومن ثم على مستوى الدولة عند الوصول إليها.

والأدلة القرآنية الكريمة تدل على وجوب التحاكم إلى شرع الله على مستوى المحكومين وكذلك أمرت الحكام بذلك.

1 ـ من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء 59].

وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)﴾ [الأنعام: 114 ـ 115].

وقال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى 10].

2 ـ ومن السُّنَّة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال: «**يا أيها النَّاس، إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلُّوا أبداً، كتاب الله وسنتي**»(1).

3 ـ ومن أقوال السلف:

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم «أي السلف الصالح» اعتصامهم بالكتاب والسُّنَّة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان، أنه لايقبل من أحد قط أن يُعارض القرآن، لا برأيه ولا بذوقه، ولا معقوله، ولاقياسه، ولا وجده، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول ﷺ

(1) مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبيّ ﷺ (2/ 890) رقم 1218.

obeikandl.com

جاء بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم»[1].

إن حرص كل مسلم على تحكيم شرع الله تعالى في نفسه وأسرته ومجتمعه خطوة أصيلة نحو وحدة الأمة والاقتراب من نصر الله تعالى، كما أن للتحاكم إلى شرع الله تعالى آثاراً دنيوية وأخروية.

الآثار الدنيوية: الاستخلاف والتمكين، والأمن والاستقرار، والنصر والفتح، والعز والشرف، وبركة العيش ورغد الحياة والهداية والتثبيت، وانتشار الفضائل وانزواء الرذائل.

أما الآثار الأخروية: المغفرة وتكفير السيئات، والثواب العظيم عند الله تعالى، والحياة الحقة الدائمة، وعلو المنزلة ومعية الكريم.

جـ ـ صدق الانتماء إلى الإسلام:

ومن الأصول المهمة في توحيد صفوف المسلمين؛ أن يجتهد الدعاة إلى الله في تحصين المسلمين من المناهج والنظريات والدعوات الأرضية، التي تفنن أصحابها في تزويقها وتزيينها، وكانت سبباً مهماً في تشتيت ولاء المسلمين وفقد كثير من أبناء المسلمين هويتهم، ومسخ شخصيتهم بفعل التضليل المستمر الذي يمارسه شياطين الإنس والجن بمختلف الوسائل، ومن أسباب جمع صفوف الأمة وتحقيق الوحدة بينها الدعوة إلى الالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة، ومنهج حياة، والاعتزاز بالانتساب إلى هذا الدين، ونبذ كل ما يخالفه ويضادّه.

إن الإسلام منهج حياة، والعبودية لله معلم كبير في حياة المسلم، والمسلمون وفق هذا المنهج والفهم يشكلون أمة واحدة في مقابلة التجمعات البشرية.

والمسلم الصادق يعتز بالانتساب إلى الإسلام: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت 33]. نصّ المولى عزّ وجلّ على أن أفضل النّاس هم الذين يعلنون انتسابهم إلى الإسلام.

وكثير من المسلمين اليوم فقدوا انتماءهم، فأخذوا يبحثون عن عقائد ومذاهب وأقوام ينتسبون إليها، ألا وهي الإسلام، لا راية الأوطان، أو الأقوام أو الأحزاب، أو التجمعات الضالة. والتوحيد والانتساب إلى الإسلام ملة إبراهيم عليه السلام: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النحل 123].

(1) مجموع الفتاوى (13/ 28).

د ـ طلب الحق والتحري في ذلك:

إن هذا الأصل العظيم ألا وهو طلب الحق والتحري للوصول إليه يقوي وحدة صف العاملين لتحكيم شرع الله وهي من أهم سمات الربانيين الذين صفت نفوسهم وتطهرت قلوبهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

إن الله تعالى في كتابه الكريم، بيَّن أنه لاتوجد منزلة ثالثة بين الحق والباطل، فقال سبحانه: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس 32].

قال القرطبي ـ رحمه الله: «قال علماؤنا: حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله تعالى، وكذلك هو الأمر في نظائرها، وهي مسائل الأصول فإن الحق فيها في طرف واحد»[1].

والحق لابدّ فيه من اليقين، ولا يكفي فيه مجرد الظن، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس 36].

قال ابن كثير: «أي لا يجدي شيئاً ولا يقوم أبداً مقام الحق»[2]. وقد عدَّ النبيّ ﷺ ردَّ الحق وعدم قبوله من الكبر الذي هو من أشنع الخصال وأردأ الفعال. قال رسول الله ﷺ: «**الكبر بطر الحق وغمط النَّاس**»[3].

إن بطر الحق هو دفعه وإنكاره ترفعاً وتكبراً واستعلاء، وأما غمط النَّاس فهو احتقارهم.

إن الحق هو ما دلت عليه نصوص الكتاب والسُّنَّة، وعلى كل مسلم أن يتبع كل دليل شرعي علمه وتبينه، قال تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة 38].

ومن أهم الوسائل التي تعين على طلب الحق والتحري في ذلك: تقوى الله عز وجل، والإخلاص والتجرد، واللجوء إلى الله عز وجل، والافتقار إليه، وتدبر الكتاب والسُّنَّة، واتباع سبيل السابقين الأولين، والصحبة الطيبة.

هـ ـ تحقيق الأخوة بين أفراد المسلمين:

إن من الأصول العظيمة التي تحقق وحدة الصف وقوة التلاحم، ومتانة التماسك بين أفراد

(1) الجامع لأحكام القرآن (8/ 336).
(2) تفسير القرآن العظيم (4/ 255).
(3) مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر (1/ 65).

المسلمين تحقيق الأخوة في أوساطهم، إن الأخوة منحة من الله عَزَّوَجَلَّ، يعطيها الله للمخلصين من عباده والأصفياء والأتقياء من أوليائه وجنده وحزبه.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: 62 ـ 63].

وهي قوة إيمانية تورث شعوراً عميقاً بعاطفة صادقة ومحبة وود، واحترام، وثقة متبادلة، مع كل من تربطنا بهم عقيدة التوحيد ومنهج الإسلام الخالد، يتبعها ويلزم منها: تعاون وإيثار ورحمة وعفو وتسامح، وتكافل وتآزر وهي ملازمة للإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]. ولا يذوق حلاوة الإيمان إلا من أشرب هذه الأخوَّة. قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»[1].

إن القرآن الكريم يرسم لنا صورة جميلة لأصحاب رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: 29].

إن القرآن الكريم حين وضع بين دفتيه هذه السورة، إنما يخبرنا بتكريم الله عَزَّوَجَلَّ فهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29]، أشداء على الكفار ولو كان فيهم الآباء والقرابة والأبناء.

رحماء بينهم، وهذه الأخوة في الحق، أخوة في الدين، إن الأخوة في الله من أهم الأسباب التي تعمل على الصمود في وجه أعتى المحن التي تنزل بالمسلمين، كما أن الفهم المتبادل والكامل للأخوة في الله من أسباب تماسك صفوف المسلمين وقوتهم ومن أسباب شموخهم والتمكين لهم[2].

إن النبيّ ﷺ اعتمد على معاني الأخوة وعمل على تحقيقها وجعلها من الوسائل المهمة في بناء المجتمع الإسلاميّ والدولة الإسلامية، وإن أهمية هذا الأساس تظهر في الجوانب التالية:

---

(1) البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (1/ 11).

(2) انظر: نظرات في رسالة التعاليم للشيخ محمد عبد الله الخطيب، ومحمد عبد الحليم حامد، ص 296، 297.

1 - إن أي دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلا على أساس من وحدة الأمة وتساندها. ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير التآخي والمحبة المتبادلة، فكل جماعة لا تؤلف بينها آصرة المودة والتآخي الحقيقية، لا يمكن أن تتحد حول مبدأ ما. وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة في الأمة أو الجماعة، فلا يمكن أن تتألف منها الدولة.

على أن التآخي لابد أن يكون مسبوقاً بعقيدة يتم اللقاء عليها والإيمان بها، فالتآخي بين شخصين يؤمن كل منهما بفكرة أو عقيدة مخالفة للأخرى خرافة ووهم، خصوصاً إذا كانت تلك الفكرة أو العقيدة مما يحمل صاحبها على سلوك معين في الحياة العملية. ومن أجل ذلك فقد جعل رسول الله ﷺ أساس الأخوة التي جمع عليها أفئدة أصحابه، العقيدة الإسلامية التي جاء بها من عند الله تعالى والتي تضع النَّاس كلهم في مصافَ العبودية الخالصة لله تعالى دون الاعتبار لأي فارق إلا فارق التقوى والعمل الصالح؛ إذ ليس من المتوقع أن يسود الإخاء والتعاون والإيثار بين أناس شتتتهم العقائد والأفكار المختلفة فأصبح كل منهم ملكاً لأنانيته وأهوائه.

2 - إن المجتمع - أي مجتمع - إنما يختلف عن طائفة ما من النَّاس منتشرة متفككة بشيء واحد هو قيام مبدأ التعاون والتناصر فيما بين أشخاص هذا المجتمع، وفي كل نواحي الحياة ومقوماتها، فإن كان هذا التعاون والتناصر قائمين ضدَّ ميزان العدل والمساواة فيما بينهم، فذلك هو المجتمع الظالم المنحرف.

وإذا كان المجتمع المسلم إنما يقوم على أساس من العدالة في الاستفادة من أسباب الحياة والرزق، فما الذي يضمن سلامة هذه العدالة وتطبيقها على خير وجه؟

إن الضمانة الطبيعية والفطرية الأولى لذلك، إنما هي التآخي والتآلف.

3 - إن تحقق مبادئ العدالة والمساواة بين الأفراد لا يتم مالم تقم على أساس من التآخي والمحبة فيما بينهم، بل إن هذه المبادئ لاتعدو أن تكون حينئذ مصدر أحقاد وضغائن تشيع بين أفراد ذلك المجتمع، ومن شأن الأحقاد والضغائن أن تحمل في طيها بذور الظلم والطغيان في أشد الصور والأشكال.

من أجل هذا: اتخذ رسول الله ﷺ من حقيقة التآخي الذي أقامه بين المهاجرين والأنصار أساساً لمبادئ العدالة الاجتماعية التي قام على تطبيقها أعظم وأروع نظام اجتماعي في العالم.

ولقد تدرجت مبادئ هذه العدالة فيما بعد بشكل أحكام وقوانين شرعية ملزمة.

ولكنها كلها إنما تأسست وقامت على تلك «الأرضية» الأولى، ألا وهي الأخوة الإسلامية

ولولا هذه الأخوة العظيمة التي تأسست بدورها على حقيقة العقيدة الإسلامية لما كان لتلك المبادئ أي أثر تطبيقي وإيجابي في شد أزر المجتمع الإسلاميّ ودعم كيانه[1].

لم يكن ما أقامه الرسول ﷺ بين أصحابه من مبدأ التآخي مجرد شعار في كلمة أجراها على ألسنتهم، وإنما كان حقيقة عملية تتصل بواقع الحياة وبكل أوجه العلاقات القائمة بين الأنصار والمهاجرين، ولذلك جعل النبيّ ﷺ من هذه الأخوة مسؤولية حقيقية تشيع بين هؤلاء الأخوة وكانت هذه المسؤولية محققة فيما بينهم على خير وجه. لقد كانت رابطة الأخوة بين الصحابة الكرام من أسباب قوتهم ونصرة الله لهم.

إن مناط الأخوة وأساسها، إنما هو رابط الإسلام وعقيدته الصحيحة وهي من أهم أسباب وحدة الصف، وقوة البنيان بين أفراد الأمة المسلمة التي تسعى لتحكيم شرع الله تعالى، كما لاننسى أن من أسباب وحدة صفوف الأمة، العلم النافع، والإخلاص، وتجريد المتابعة، وغير ذلك من الأسباب المعنوية التي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لتوحيد صفوف الأمة، إلا أنني ذكرت أهمها خوفاً من الإطناب والإطالة.

إن التحابب بين المسلمين والحرص على روابط الأخوة المستمدة من الإيمان والعقيدة سر قوة الأمة، ومفتاح نجاحها.

---

(1) انظر: فقه السيرة للدكتور البوطي، ص 201.

المبحث الثالث

الأسباب المادية

بعد أن بينت أهم أسباب التمكين المعنوية رأيت من المناسب أن أتطرق إلى الأسباب والوسائل المادية المهمة، من تدريب، وإعداد عدة، وتوفير كوادر في كافة مناشط الحياة وهذا يحتاج إلى تخطيط وإدارة واعية، وتنظيم متين يشرف على إعداد خطة بينة المعالم، محددة الأهداف، متطورة المناهج، شرعية في أسبابها ووسائلها، لا تعتمد على الأشخاص والأفراد وإنما تهتم بنظام المؤسسات حتى يستمر النشاط ويتطور ويراعي الوصول إلى المعلومات الصحيحة، والإحصاءات الدقيقة، وتعتمد الدراسات والإمكانات، والتحليلات العلمية، والمقارنات الموضوعية والإمكانات المادية والبشرية القائمة والمحتملة، وتدرس جميع العوائق المادية والمعنوية، الداخلية والخارجية، الواقعية والمتوقعة، دون تهويل أو تهوين، ويشرف على وضع هذه الآفاق والخطط البعيدة جهاز متخصص متكامل من خبراء متمكنين، متنوعي الثقافة يكمل بعضهم بعضاً، يستعينون بكل من يرون الاستفادة منه برأي أو معلومة، من أفراد أو أجهزة أو لجان متخصصة. ومن الضروري بمكان أن تهتم الحركة بمبدأ التفرغ، والتخصص، ومراكز المعلومات وبالإعداد المادي، والأمني والسياسي والإعلامي والعسكري.

أولاً: التفرغ، والتخصص، ومراكز البحوث:

أ ـ التفرغ:

إن من أسباب التمكين لهذا الدين والانطلاق بدعوة الله بين النَّاس أن تهتم الحركات الإسلامية على المستوى القطري، والإقليمي والدولي بمبدأ التفرغ لأصحاب القدرات المتميزة في المواقع المهمة وخصوصاً في مجال العلم والفكر، ومجال التربية والتكوين، ومجال الدعوة والإعلام، ومجال السياسة والتخطيط، ومجال الاقتصاد والمال، ومجال الأمن

والاستخبارات، وكافة مجالات الحياة اللازمة لتحكيم شرع الله على كافة أفراد الشعب ومؤسسات الدولة.

إن الأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة وجهود ضخمة وهمم عالية، ولذلك تضطر الحركة الإسلامية إلى مبدأ التفرغ مع التنوع والتكامل، حتى تسد كل الثغرات في العمل الإسلاميّ، ولا يقع تركيز على جانب فيتضخم بينما آخر يهمل، ولا بد من توفير المال اللازم لهذه المشاريع لأنها من أعظم القربات إلى الله ـ تعالى ـ كما يجوز أخذ مال الزكاة أو الصدقة أو الوقف أو الوصية أو الهبة أو الهدية لسد هذه الثغرات المهمة.

كما ينبغي توفير كل ما يحتاجه المتفرغ وذويه من الأجر الكافي حتى يتفرغ للعطاء والبذل، مع مراعاة عدم الإسراف والبذخ. ولا بد من الخوف من الله تعالى عند اختيار المتفرغ بحيث يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب دون محاباة لعمرو أو زيد[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: 26].

ب ـ إعداد المختصين:

من الضرورات اللازمة التوجه لإعداد متخصصين في جوانب الحياة كافة. إن عصرنا في حاجة شديدة للتخصص الدقيق، فإن الذكاء وحده والعقل اللمعي وحده لا يكفي، والمواهب وحدها لا تكفي، والموسوعية في كل فن، والإفتاء في كل علم لا يفيد. فالذي يفيد الدراسة العلمية المتخصصة، القادرة على أن تساير العصر، وتلبي الحاجة، وتتقن العمل الذي يسند إليها، وهذا الإحسان أو الإتقان لا يتم في عصرنا إلا بالتخصص، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

يقول الدكتور القرضاوي في هذا الباب: «خذ مثلاً موضوعاً كالإعلام، وما يتطلبه من تخصصات متنوعة. إن كتابة النص علم، وكتابته في صورة حوار علم، وإخراجه علم، وأداءه وتنفيذه علم، وتسويقه علم، والإخراج الإذاعي غير الإخراج التلفزيوني، غير الإخراج المسرحي...»[2].

إن الحركات الإسلامية غنية بالنوابغ والقدرات والكفايات القادرة على أسلمة كافة المواقع الحياتية والمفصلية في الحياة، وتحتاج إلى ترتيب أولوياتها، وتوجيه طاقاتها بحيث لا

(1) انظر: أولويات الحركة الإسلامية للقرضاوي، ص 193.
(2) انظر: المصدر السابق، ص 195.

تتكدس، ولا تتراكم النوابغ في مجالات الهندسة والطب والصيدلة، وإنما تتوزع على مواقع أخر في الدراسات الإنسانية والاجتماعية من علوم النفس والتربية والاجتماع والاقتصاد والعلوم السياسية بحيث تدخل أدمغة الحركات الإسلامية في صميم مجتمعاتها ولا تترك أي مجال حيوي يؤثر في الحياة الإنسانية.

إن مبدأ التخصص يعين الحركات الإسلامية على سد الثغرات المتعددة في جوانب الحياة المتنوعة والتي لا بدّ من دخولها من أجل التمكين لدين الله تعالى.

إن اليهود، والنصارى، والملاحدة تسابقوا للهيمنة على الدراسات الإنسانية والاجتماعية من علوم النفس والتربية والاقتصاد، والعلوم السياسية والإعلامية والاقتصادية، لعلمهم أن ذلك يمكنهم من الصدارة في توجيه الأمم والمجتمعات، ولم يتركوا حتى مجال الأدب والقصة والنقد... إلخ[1].

جـ - الاهتمام بمراكز المعلومات والبحوث:

إن الاهتمام بمراكز البحوث وتطوير مراكز المعلومات من أهم حاجات العصر وأولوياته وإسناد هذه الأمور إلى متخصصين ذوي كفاءات عالية تشرف على تسيير أجهزة متطورة تلائم العصر وتطوراته واحتياجاته ومشاكله وهمومه.

لقد تعددت مصادر المعلومات والثقافات، وتقدمت وسائل الحصول عليها، ووسائل تخزينها ثم تصنيفها، ثم الاستفادة منها عند الحاجة والفائدة، ولذلك لا بد من الاستفادة منها حتى نملك معلومات كافية عن أعدائنا، وأصدقائنا وأنفسنا.

ولقد ساهمت بعض المراكز في توعية الأمة وترشيدها، وتوضيح الأخطار المحيطة بها وعالجت بعض المشاكل الواقعة فيها، ومن هذه المراكز:

1 - معهد الدراسات السياسية في باكستان:

تأسس المعهد في إسلام آباد عام (1399 هـ - 1979م) مع بداية القرن الخامس عشر الهجري، ليكون أول معهد من نوعه في العالم الإسلاميّ لتبني قضايا الأمة الإسلامية ووحدتها، وهو معهد بحثي تدريبي يقوم بالبحوث والدراسات التي تتعلق بالسياسات العامة ورسم الاستراتيجيات.

---

(1) انظر: أولويات الحركة الإسلامية للقرضاوي، ص 195.

قام المعهد بحوارات متخصصة حول القضية الأفغانية والنظام العالمي الجديد والحكومة السودانية والقضية الفلسطينية، والأخطار المحدقة بباكستان وعقد ندوات ومؤتمرات لخدمة قضايا الأمة في المحيط المحلي والإقليمي والعالمي.

كما ضم المعهد العديد من الوحدات والأقسام، أهمها: وحدة الشؤون العالمية، العالم الإسلاميّ، وحدة الشؤون الاقتصادية، دراسات عن المرأة، التعليم، تنمية الموارد البشرية، الشؤون الباكستانية والكشميرية، القسم العربي، وحدة المعلومات. يصدر هذا المعهد تقريراً سياسياً أسبوعياً (قضايا دولية) ساهم في رفع مستوى الوعي السياسي بين أفراد الأمة.

2 ـ مركز البحوث والدراسات في قطر:

تشرف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر عليه ويهتم بتشجيع العلماء والباحثين الذين يهتمون بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويهتمون بالتحصين الثقافي والتغيير الحضاري، وترشيد الصحوة في ضوء القيم الإسلامية، واستطاع المركز أن يقدم للأمة مجموعة من البحوث اتسمت بالأصالة، والإحاطة والموضوعية والمنهجية وأضافت هذه البحوث شيئاً جديداً للقارئ المسلم، وأصدرت هذه البحوث في كتب نافعة تحت سلسلة كتاب الأمة، ساهمت مساهمة فعلية في توجيه أبناء الأمة نحو الخير والرشاد والسداد ومن أهم هذه الكتب:

1 ـ مشكلات في طريق الحياة الإسلامية: محمد الغزالي.

2 ـ الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف: د. يوسف القرضاوي.

3 ـ حول إعادة تشكيل العقل المسلم: د. عماد الدين خليل.

4 ـ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: د. محمود حمدي.

5 ـ الحرمان والتخلف في ديار المسلمين: د. نبيل صبحي الطويل.

6 ـ البنوك الإسلامية: د. جمال الدين عطية.

7 ـ المدخل إلى الأدب الإسلاميّ: د. نجيب الكيلاني.

8 ـ إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها: د. ماجد عرسان.

9 ـ اليهود والتحالف مع الأقوياء: د. نعمان السامرائي.

10 ـ وثيقة مؤتمر السكان والتنمية: د. الحسيني جاد.

11 ـ في الغزو الفكري: د. أحمد السايح.

12 ـ الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع: منصور زويد.

13 ـ المسلمون في السنغال، معالم الحاضر وآفاق المستقبل: عبد القادر محمد سيلا.

14 ـ المخدرات من القلق إلى الاستعباد: د ـ محمد الهواري.

وغير ذلك من الكتب النافعة، والمؤصلة التي أفادت الأمة.

إن هذه الدراسات المنهجية المدروسة والتي يقوم عليها أهل التخصص لها أثرها في نهضة الأمة والأخذ بيدها نحر الرقي والتقدم والازدهار، والتمكين لدين الله تعالى.

3 ـ مركز الدراسات الاستراتيجية في السودان:

أصدر هذا المركز كتاب الاستراتيجية القومية الشاملة (1992 ـ 2002 م)، ودلّ الكتاب على جهد مشكور، وعمل متواصل، وإحكام دقيق من حيث التخطيط ووضوح الأهداف، وبيان الوسائل، وتحديد المراحل لكافة شؤون الدولة الإسلامية في السودان، فمثلاً:

ـ وضع المركز أبحاثاً قيمة في قطاع التنمية الاجتماعية واهتم بالجوانب الأخلاقية وبالرقي الاجتماعي، والرعاية الاجتماعية، ورعاية الطفولة، والشباب، والمرأة، والتكافل، والعمل الطوعي والخيري، والتعليم العالي، والتعليم العام، والتخطيط العمراني والإسكان، وتنمية السياحة والرياضة والبيئة.

ولقد ظهرت آثاره الطيبة في المجتمع السوداني بفضل الله ثم بالجهود المشكورة والتخطيط السليم الذي أشرف على تنفيذه أبناء المسلمين في السودان، فقُطعت أشواط في توسيع التعليم وإنشاء الجامعات وظهرت الخدمات الاجتماعية لكافة قطاعات الشعب مع ما تمر به الدولة من تضييق عالمي ومحاربة علنية لمشروعها الحضاري الإسلاميّ الذي قامت من أجله.

ـ وفي قطاع الثقافة والإعلام بيَّن المركز الأهداف والأدوار والأدوات والمراحل اللازمة للسياسة الثقافية وتشريعاتها، معتمدين في ذلك على التخطيط الحديث والعبقرية الإسلامية والعقلية الإيمانية، واستطاع الإعلام في السودان أن يحقق بعض أهدافه وكانت له مساهمات واضحة في إحياء روح الجهاد وكشف مخططات الأعداء بواسطة وكالات الأنباء وشبكات الاتصال ومجال الإعلام الإلكتروني والإعلام الداخلي والخارجي.

ـ أما في مجال العلوم والتقنية، فبين المركز المواجهات والأهداف ومراحل التنفيذ والوسائل من معلومات وبحوث ومؤسسات وطاقات بشرية، ونظم قانونية، وإمكانات مادية، وبرمج ذلك في برامج واضحة المعالم.

وظهرت للوجود الكوادر السودانية في مجال النفط والتنقيب عن المعادن وأصبح السودان ينتج النفط وبعد قليل ـ بإذن الله تعالى ـ سيصدره.

ـ أما قطاع السياسة والنظام العالمي، فقد وضح معنى الحكم الاتحادي والنظام السياسي، والعمل النقابي والفئوي، والنظام العدلي، وتعرض للجبهة الداخلية الجنوبية ومحاور التحرك لتحقيق السلام ووضع خطة لإعادة التأهيل والاستيعاب والتعمير لأبناء الجنوب.

وبفضل الله تعالى ثم بالتخطيط السليم استطاع السودان أن يحبط مخططات الأعداء وأن يقطع شوطاً بعيداً في قضاياه السياسية والداخلية وظهر من أبنائه أداء سياسي متميز ونبوغ فذ أقنع الأصدقاء والأعداء بقدرتهم في إدارة اللعبة السياسية.

ـ وفي قطاع العلاقات الخارجية، تعرض المركز للتغييرات السياسية الدولية للعقد المقبل، وطبيعة القوى السياسية في الحياة الدولية، وتوازن المصالح وتوازن القوى، ووضع الأهداف العليا لسياسة السودان الخارجية في السياسة الإقليمية والدولية، وتعرض للمواجهات وللوسائل في تحقيق العلاقات الخارجية، ووضع خطط وبرامج لتدعيم وزارة الخارجية، وتطوير الوزارة في مجالاتها البشرية والمادية وأجهزتها ومعداتها.

وحقق السودان ـ بفضل الله تعالى ـ انتصارات رائعة في السياسة الدولية واستطاع أن يعقد علاقات متينة مع دول قوية مثل الصين، وروسيا، وفرنسا، كما استطاع أن يشكل علاقات حيوية مع جنوب إفريقيا، ونيجيريا وغيرها من الدول الإسلامية والعربية والآسيوية والإفريقية.

إن السودان اليوم يمثل تجربة رائعة وفريدة من نوعها لأنصار المشروع الإسلاميّ الحضاري وسوف نتعرض للتجربة السودانية عند تكلمنا عن مراحل التنفيذ واختيار الإسلاميين لخيار القوة في الوصول للحكم.

ـ أما في قطاع الأمن والدفاع، فبين المواجهات والأهداف، ووضع المبادئ الأساسية للشرطة، والبرامج الرئيسة في مجال منع الجريمة واكتشاف ما يقع منها، ووضع قانون للأوراق الثبوتية والهجرة وتأهيل رجال الشرطة على مستوى الضباط، وضباط الصف، وتزويدهم بكافة الوسائل الحديثة لأداء مهمتهم على أكمل وجه.

إن الشعب السوداني بكافة فصائله عندما يقارن بين الحالة الأمنية في عهد الإنقاذ ومن قبلهم يسلم بأن الدولة الإسلامية استطاعت ـ بفضل الله ـ أن تحقق الأمن والسلامة لمواطنيها والفضل ماشهدت به الأعداء.

إن من أهم الأسباب المادية التي يجب علينا أن نهتم بها في عملنا الدؤوب لتمكين دين الله الاهتمام بالتفرغ وإعداد المتخصصين، وإنشاء المراكز التي تهتم بالأبحاث والعلوم.

ثانياً: التخطيط والإدارة:

إن التخطيط السليم والإدارة الناجحة في العمل الإسلاميّ من الأسباب الأكيدة في التمكين لدين الله تعالى ولقد عرّف بعض الباحثين التخطيط بأنه «جسر الحاضر والمستقبل»[(1)].

إن التخطيط في المفهوم القرآني هو الاستعداد في الحاضر لما يواجه الإنسان عمله أو حياته في المستقبل، وعلى هذا فإن الإداري المسلم يكون قد عرف التخطيط لأن الله تبارك وتعالى قد وجه إلى ذلك في آيات كثيرة.

قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص 77].

إنه توجيه رباني للتخطيط في هذه الدنيا لمقابلة مصير الآخرة. وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60].

يقول الدكتور عبدالرحمن الضحيان: «هذه الآية دعوة للإدارة الإسلامية بالعمل والتخطيط والاستعداد بقوة لمواجهة أمر مستقبلي قد يحدث لدار الإسلام وأمته، والقوة هنا تفهم بمفهوم العصر، فقد تفهم بالقوة البدنية، وذلك ببناء الرجال الأشداء الأقوياء في إيمانهم وأبدانهم وقوة السلاح بكل أنواعه، وحسب ما تخرجه المصانع من أنواع الأسلحة حتى القوة والطاقة الذرية وذلك ببناء المصانع النووية الإسلامية وحمايتها من ضرب الأعداء لها وذلك كله لإرهب عدو الله وأعداء الإنسانية وحماية دار الإسلام من الأعداء. كما في آية: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم﴾ مفهوم التخطيط الطويل الأجل الذي يجب أن تأخذ به الدولة الإسلامية وإدارتها الحكيمة حتى تحمى شوكة وقوة الإسلام»[(2)]. إن الأمثلة في القرآن الكريم على أهمية التخطيط كثيرة فمنها:

أ ـ يوسف عليه السلام:

ضرب القرآن الكريم مثلاً للتخطيط السليم الذي قام على أسس منطقية فأمكن بذلك تلافي مجاعة كانت تهدد النّاس جميعاً بالهلاك، بسبب التخطيط السليم الذي قام به يوسف عليه السلام وهو أمين على الخزائن ـ وذلك حين فسر الرؤيا التي جاءت على لسان ملك مصر في قوله

---

(1) التخطيط والرقابة أساس نجاح الإدارة للدكتور عبد الفتاح دياب حسين، ص 97.

(2) انظر: الإدارة في الإسلام نقلاً عن: التخطيط والرقابة أساس نجاح الإدارة، ص 97.

تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ [يوسف 43]، وتولى يوسف عليه السلام تفسير الرؤيا فقال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: 47].

إن يوسف عليه السلام فسر الرؤيا وزاد عليها بأن قدم خطة عملية تستغرق القطر كله والشعب المصري كله، أي أن خطته اعتمدت على التشغيل الكامل للأمة والبرمجة الكاملة للوقت، ثم التشغيل الكامل لطاقة كل فرد في الأمة، وهذا الذي أراده يوسف عليه السلام وعبر عنه بقوله ﴿تَزْرَعُونَ﴾، إن الذي يخطط له يوسف عليه السلام هو مضاعفة الإنتاج وتقليل الاستهلاك، لأن الأزمات والظروف الاستثنائية تحتاج إلى سلوك استثنائي، ولأن سلوك النَّاس في الأزمات غير سلوكهم في الظروف العادية ـ استرخاء وبطالة ـ فإن هذه الأمة تكون في حالة خلل خطير يحتاج إلى علاج ومعالج خبير[1].

إن يوسف عليه السلام قسم خطته إلى ثلاث مراحل:

1 ـ ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: 47].

2 ـ ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف: 48].

3 ـ ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ [يوسف: 49].

وتظهر ملامح هذه الخطة في الآتي:

1 ـ الطابع الغالب على المرحلة الأولى هو الإنتاج والادخار مع استهلاك محدود، فيوسف عليه السلام حدد خطط الإنتاج بالزراعة وحدد استمرار الإنتاج الزراعي سبع سنين العمل فيها دائب لاينقطع، ومع هذا الجهد الكبير في الإنتاج المستمر كان هناك تحديد واضح للاستهلاك يبدو في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: 47]، وأمر يوسف بحفظ السنابل المخزونة من الغلال كاملة كما هي ﴿فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ [يوسف: 47].

2 ـ فإذا ما انتهت سنوات الإنتاج السبع، بما فيها من جهد متصل دائب، واستهلاك محدود كان على الخطة أن تقابل تحدياً ضخماً هو توفير الأقوات سبع سنين عجاف، وبعبارة أخرى: بعد الإنتاج والجهد الدائب في المرحلة الأولى سيأتي تحمل أيضاً في المرحلة الثانية وهو تحمل يحتاج إلى تنظيم دقيق يصل فيه الطعام إلى كل فم.

(1) انظر: سورة يوسف، دراسة تحليلية للدكتور أحمد نوفل، ص 409.

3 ـ ومع هذا التحمل والتنظيم الدقيق، ينبغي ألا تأتي هذه السنوات العجاف على كل المدخرات وإنما كان يوسف عليه السلام واضحاً في قوله ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف 48]، فكان هذا الجزء المدخر هو «الخميرة» التي تستطيع بها الأمة أن تقابل متطلبات البذر الجديد بعد السنوات العجاف، أي إعادة استثمار المدخرات.

كان على يوسف عليه السلام أن يوازن بين ثلاثة جوانب: الأول: الإنتاج، والثاني: الاستهلاك، والثالث: الادخار، وأن يعيد استثمار المدخرات.

ومن طبيعة التطور أن تختلف: «تفاصيل الصورة»، ولكن أساسها سيظل قائماً عميقاً في ديننا وتراثنا[1].

وتظهر معالم التخطيط والإدارة في كلمات يوسف عليه السلام حيث أن التخطيط يعتبر وظيفة أساسية من وظائف الإدارة، التي لا يمكن لها أن تكون فعالة بدونها، كما أن التخطيط في حقيقته يعتمد على دعامتين وخمسة عناصر، أما الدعامتان فهما التنبؤ والأهداف، وأما العناصر فهي السياسات، والوسائل والأدوات، والموارد المادية والبشرية، والإجراءات والبرامج الزمنية، والموازنة التخطيطية التقديرية[2].

إن كتب علم الإدارة والتخطيط الحديث تقول: إنه لا إدارة فعالة إلا بتنظيم ووفق تخطيط سليم مسبق، وهذا عين الذي زاوله يوسف عليه السلام. لقد جاء إلى الحكم يوم جاء وبرنامجه الإصلاحي السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتربوي والإعلامي والزراعي كل ذلك في ذهنه قد أعد إعداداً دقيقاً.

دعامتا التخطيط: التنبؤ، والأهداف:

أما التنبؤ: فاستشراف المستقبل واستشفاف الآتي، وهذا عين ما كان من يوسف بما علمه الله ـ تعالى ـ ثم نجده، أيضاً، قد حدد الأهداف في مضاعفة الإنتاج، وتقنين الاستهلاك أو ترشيده، ثم تخزين الطعام وهذا يقتضي خطة تفصيلية؛ لأن الهدف العام الكبير ليس شيئاً إن لم يقترن بخططه التفصيلية؛ وهنا يأتي دور السياسات والوسائل، والأدوات والموارد البشرية والإجراءات، والبرامج الزمنية والموازنة التقديرية.

هذا هو ما فعله يوسف عليه السلام على ضوء علم الإدارة الحديث وإن كان القرآن الكريم

(1) مواقف إسلامية للدكتور: عبد العزيز كامل، ص 83 ـ 86.
(2) انظر: سورة يوسف، دراسة تحليلية، ص 415، 416.

حصر كلام يوسف عليه السلام في جمل جامعة وجيزة ولم يشر إلى تنمية الإنسان لكنها متضمنة قطعاً ضمن الخطة، لأن القرآن الكريم علمنا أن الإنسان إنما هو نفسيته ومضمونه ومحتواه، وأن تغيير الخارج بدون تغيير الداخل لا يغير نقيراً.

لقد وضع يوسف عليه السلام العنصر البشري في خطته، لعلمه أنه لا تنجح خطة ليس وراءها الإنسان الذي ينفذها، وأما منهجه في التعامل مع الإنسان فقد ظهر في دعوته للسجينين للتوحيد، وبذلك يكون منهجه في الارتقاء بالإنسان الذي هو عدة الحضارة ومحرك النهضة ومنفذ البرامج ومنجز المشاريع دعوته للتوحيد وتعليمه حقيقة الإيمان بالله وهذا الكون وهذه الحياة.

إن فائدة التغيير الخارجي تزول إذا لم يكن هناك إنسان أمين على منجزات التغيير الخارجي ويحمل القيم الداخلية التي تضمن استمرارية التغيير الخارجي، صحته وصدقه وأمانته. إن التغيير يجب أن يمارسه الإنسان في المحتوى النفسي، فيطور وينمي ذاته باتجاه الأفضل ثم يجسد محتواه النفسي تغييراً خارجياً، ويحوله إلى ممارسة وتطبيق وتحقيق؛ لأن أحوال النَّاس وأوضاعها الاجتماعية من الفساد أو الخير لا تتغير إلا إذا تغير محتوى الإنسان، وما هو عليه من الحق أو الباطل؛ هذا هو منطق القرآن والحياة، لكي ترسي نظاماً لا بد أن تهيئ له إنساناً أولاً.

إذا طورنا النظام ومفاهيمه دون الإنسان ومفاهيمه فسرعان مايتسرب الفساد من الإنسان إلى النظام، فيقوضه أكثر مما يتسرب الإصلاح من النظام إلى الإنسان فيصلحه؛ لأن الأنانية وحب الذات والجشع أقوى من نصوص القوانين والأنظمة ما لم تهذبها التربية الداخلية العميقة والأخلاق الكريمة المبنية على معرفة الله وحبه والخوف منه[1]. إن الآيات القرآنية الكريمة أشارت إلى جوانب أخرى ارتبط بها نجاح الخطة ارتباطاً مباشراً، وأهمها جانبان يجمعهما عنصر واحد هو العنصر البشري وعلاقته بنجاح الخطة:

1 ـ استعداد يوسف عليه السلام على أن يشرف على تنفيذ هذه الخطة، وكان هذا الاستعداد بعد أن بدد ظلال الشك وأوهام التهم عن نفسه، وبذلك حدث التكامل القوي بين الخطة والمخططين، بين حساب الأرقام وحساب الأخلاق، بين الأسس المادية والقيم الروحية في المجتمع، بين الدين والحياة[2].

---

(1) انظر: سورة يوسف دراسة تحليلية، ص 418، 419.

(2) المصدر نفسه، ص 240.

obeikandl.com

2 ـ الجانب الثاني: يتجلى في اختيار المعاونين الذين ساعدوه في عمله، فكان من رجال يوسف عليه السلام العون الصادق على تنفيذ أوامره بدقة وهدوء[1].

كما أشارت الآيات القرآنية إلى المعلومات اليقينية التي بنى عليها يوسف عليه السلام خطته.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف: 48].

إن من معالم الخطة السياسية والاقتصادية الناجحة أن تكون مبنية على معلومات يقينية صادقة حقيقية لا على الخيال الشعري المجنح الذي لا يرتبط بالواقع، ومن هنا صارح يوسف عليه السلام الشعب بالشدائد التي تنتظره، لكنها ليست المصارحة التي تثبط أو تقعد عن العمل، ولكنها التي تدفع للعمل وتزيد الهمة وتضاعف من الجهد والطاقة.

إن السبع التي تلي الرخاء ستكون مجدبة لا تعطي بل تأخذ وتأكل فهي تقتضي حرصاً واحتياطاً[2].

قال سيد قطب ـ رحمه الله: «﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف: 48] لا زرع فيهن ـ يأكلن ماقدمتم لهن وكأن هذه السنوات هي التي تأكل بذاتها كل ما يقدم لها لشدة نهمها وجوعها: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف: 48]، أي إلا قليلاً مما تحفظونه وتصونونه من التهامها. ثم تنقضي هذه السنوات الشداد العجاف المجدبة، التي تأتي على ما خزنتم وادخرتم من سنوات الخصب، تنقضي ويعقبها عام رخاء، يغاث النّاس فيه بالزرع والماء، وتنمو كرومهم فيعصرونها خمراً وسمسم وخسهم فيعصرونه زيتاً. وهنا نلحظ أن هذا العام الرخاء لا يقابله رمز في رؤيا الملك، فهو إذن من العلم اللدني الذي علمه الله يوسف عليه السلام، فبشر به الساقي ليبشر الملك والنّاس بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخي رغيد...»[3].

ونلاحظ في الآيات القرآنية الكريمة التي تكلمت عن خطة يوسف عليه السلام عنصر الأمل والتفاؤل وهذا الأمر مهم في الخطة الناجحة.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: 49]. إن بعد الشدة التي أشار إليها يوسف انفراجاً ورخاة، وستعود الأمور بإذن الله تعالى إلى

(1) مواقف إسلامية، ص 86 ـ 89.
(2) انظر: سورة يوسف، دراسة تحليلية، ص 427.
(3) في ظلال القرآن (4/ 1994).

سيرتها الأولى، ولكن بداية العودة تكون عاماً مباركاً غير معهود العطاء وفرة وكثرة، وكأن الخير فيه سيفيض بغير جهد، فهو غائم ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يسقون الغيث، أو يغاثون ينجدون من الغوث. وكل ذلك متلازم، ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، إشارة أخرى إلى فيض الخير، فلا يلجأ النّاس إلى العصر للثمار إلا بعد أن تفيض عن حاجة الاستهلاك الأساسية وهي الأكل. ولابد من الأمل والتفاؤل في أي خطة، وإلا فإن كان لا أمل فما الداعي إلى العمل، ولقد حرَّك يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ دوافع العمل عندهم بتحذيرهم من شدة سنوات القحط ثم حركها ثانية بفتح نافذة الأمل[1].

إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مظلوماً مضطهداً في سجن الملك وهو يملك من المعلومات والخطط مايجعله في محل قوة عند المفاوضة إلا إنه لم يشترط لنفسه شيئاً، بل جادت نفسه الزكية بالتفضل بالخير والعطاء والنصح والإرشاد بدون أي مقابل من الخلق، وهذه الأخلاق الكريمة والصفات الجميلة يكرم الله بها من يريد أن يجعله قدوة لدينه ومعلماً لدعوته، كما نلاحظ أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مستوعباً لفقه الخلاف حيث أن الملك وشعبه بعيدون عن منهج الله، منغمسون في مناهج الجاهلية، ومع هذا التقى معهم في الخير المحض والسعي نحو إنقاذ البلاد والعباد من محنة المجاعة والقحط، وهذه السعة في الفهم والاستيعاب العميق يحتاجها من يتصدى لدعوة النّاس ودفعهم نحو تمكين دين الله في الأرض.

لقد كان من ثمار تدبير يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وتخطيطه أن حفظ الشعب من الهلاك والجوع وخرج من الشدائد وعاد إلى الرخاء؛ وفي هذا القصص القرآني إشارات إلى واقع تخطيطي؛ لكي ندرك أن الإسلام لايقوم على التخمين أو التواكل، ولكنه يهتم بأدق الأساليب وأعمقها سواء في جوانب الاقتصاد أو السياسة أو غيرها.

ب ـ من سيرة سيد الخلق ﷺ:

إن سيرة الرسول ﷺ مَعْلَم بارز في جميع جوانب الحياة ونلحظ من سيرته العطرة جانب التخطيط وإحكام الإدارة ودقة التنظيم في كل مراحل دعوته؛ فإذا نظرنا ـ مثلاً ـ إلى الهجرة النبوية نجد أن الرسول ﷺ وضع لها خطة احتوت على هذه العناصر: تحديد الهدف، تنظيم الوسائل، رسم أسلوب التنفيذ، محاولة التنبؤ بالمستقبل، ولذلك نلاحظ الآتي:

---

(1) انظر: سورة يوسف، دراسة تحليلية، ص 428.

تحديد الهدف:

لقد حدد النبيّ ﷺ هدفه من الهجرة، وهو مغادرته هو وأصحابه مكة إلى المدينة آمنين، ثم نشر دعوة الإسلام في بيئة جديدة تتطلع إلى رسالة رب العالمين وتدافع عن المؤمنين وتدفع عنهم الأذى، قال تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 100].

تنظيم الوسائل واختيار المكان:

فحين أوحى الله إلى نبيه بالهجرة، كانت الوسيلة والسبيل إلى تحقيق هذا الأمر، هو التخطيط والتدبير حتى يضمن نجاح مهمته، ولقد كان للهجرة مقدماتها، ومنها:

1 ـ حسن اختيار الرسول ﷺ للمكان، وكان هذا بوحي من الله عز وجل.

2 ـ والمدينة؛ لأنها توفي بالمقصد، وتتناسب مع الهدف.

3 ـ وبها صلات القربى، بنو النجار أخوال جده عبدالمطلب من قبيلتي الأوس والخزرج.

4 ـ والموقع الاقتصادي للمدينة، حيث غنائها بمائها وزرعها وثروتها التجارية.

5 ـ ومنيعة بحصونها، ولها سيادة وسلطان بأهلها من الأوس والخزرج.

6 ـ وتجارة مكة تمر عبرها إلى الشام، لموقعها الاستراتيجي.

7 ـ مجاورة أهلها لأهل الكتاب وسماعهم من المسلمين، يجعلهم أكثر قرباً للاستماع للدعوة الجديدة.

التمهيد للهجرة:

بيعة العقبة الأولى:

كانت خير تمهيد لتنفيذ الهجرة ثم تلتها بيعة العقبة الثانية ثم بيعة العقبة الكبرى.

والعقبة مكان مرتفع شرقي مكة على يسار الطريق لقاصد منى من مكة، ولقد لقي الرسول ﷺ في العقبة الأولى:

1 ـ ستة نفر كلهم من الخزرج.

2 ـ دعاهم وعرض عليهم الإسلام فاستجابوا.

3 ـ انصرفوا إلى المدينة وبدأوا ينشرون الإسلام فيها.

4 ـ لم تبق دار من دور الأنصار إلا فيها ذكر لرسول الله ﷺ.

5 ـ واعدوا النبيّ ﷺ أن يقابلوه في الموسم القادم من المكان نفسه.

بيعة العقبة الثانية:

ولما حلَّ الموسم جاء من المدينة اثنا عشر رجلاً من قبيلة الخزرج، منهم النفر الستة الذين بايعوه في العقبة الأولى، واثنان من قبيلة الأوس:

1 ـ التقى بهم رسول الله ﷺ وأسلموا جميعاً.

2 ـ بايعوا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة.

3 ـ سميت هذه البيعة ببيعة النساء، لأنهم لم يبايعوا على القتال، وإنما على الدخول في الإسلام.

4 ـ أرسل معهم الرسول ﷺ ابن أم مكتوم ومصعب بن عمير ليعلماهم القرآن ويفقهاهم في الدين.

5 ـ أسلم على يدي مصعب أكثر أهل المدينة؛ ولذا يسمى فاتح المدينة[1].

بيعة العقبة الثالثة ـ أو الكبرى:

وفد على مكة في العام الثالث في موسم الحج جماعة من يثرب بلغت عدتهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، منهم أحد عشر من الأوس، فواعدهم الرسول ﷺ أن يلقاهم عند العقبة، فبايعهم على الإسلام وعبادة الله، وألا يشركوا به شيئاً، ثم على حمايته إن قدم المدينة.

وتدل وقائع هذه البيعات الثلاث على الآتي:

1 ـ على بالغ ودقة الإحكام في التخطيط.

2 ـ نجاح هذه المرحلة التي تعتبر بمثابة الإعداد والتحضير للهجرة.

3 ـ دقة اختيار الوقت المناسب لعقد المعاهدة وهو موسم الحج، حتى لا يلفت الأنظار إليه من المشركين المتربصين.

---

(1) انظر: الدعاة والتخطيط للشيخ محمد عبد الله الخطيب، ص 59 ـ 61.

obeikandl.com

4 ـ دقة الاختيار في الموعد؛ حيث جُعِلَ بعد ثلث الليل، حتى يمكن اجتناب العقبات التي تتوقع من المشركين وكان هذا الاختيار مساعداً في نجاح الخطة.

5 ـ تنظيم النبيّ ﷺ في العقبة الثالثة للأوس والخزرج وجعل من بين السبعين اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهذا يدل على بعد نظر النبيّ ﷺ ومقدرته على ترتيب وتنظيم الطاقات.

6 ـ مراعاة التدرج في تنفيذ الخطة وهذا يدل على رجاحة عقل المخطط ومراعاة لمقتضيات الأحوال وسنة التدرج للوصول إلى الهدف المنشود.

7 ـ مراعاة كافة الظروف المحيطة ووضع الوسائل المناسبة وترتب على هذا التخطيط الرشيد الآتي:

ـ دخول بعض البشر دين الإسلام في البيعة الأولى.

ـ زيادة العدد إلى الضعف في الثانية وإرسال المربي الذي يتعهد ويعلم ويربي النواة الأولى في المدينة.

ـ الوصول مع أهل يثرب إلى معاهدة دفاعية في البيعة الأخيرة.

ـ تنفيذ أمر الهجرة.

تحرك المهاجرون من مكة إلى المدينة ويظهر عنصر التخطيط الدقيق في الآتي:

1 ـ خروج المسلمين من مكة متفرقين.

2 ـ التزام مبدأ السرية التامة.

3 ـ التحمل والصبر من أجل العقيدة والدين.

4 ـ كانت هجرة الصحابة رضي الله عنهم تمهيداً لخطة هجرة النبيّ ﷺ[1].

وحان وقت الهجرة للنبيّ ﷺ وشرع النبيّ ﷺ في التنفيذ ونلاحظ الآتي: وجود التنظيم الدقيق للهجرة حتى نجحت، على الرغم مما كان يكتنفها من صعاب وعقبات. وذلك أن كل أمر من أمور الهجرة كان مدروساً دراسة وافية بحيث لم تترك ثغرة واحدة للعدو ينفذ منها، ولم يترك شأناً من شؤونها للمصادفة أو للحظوظ العمياء، فلقد تمت الرحلة المثيرة التي لم

(1) انظر: الدعاة والتخطيط ص 61 ـ 63.

يعرف أخطر منها في التاريخ في سبيل الحق بطريقة سرية، لم يعلم بها أحد، وفي تكتم شديد وحرص بالغ، حتى لقد قال الرسول ﷺ لأبي بكر عندما أراد أن يفضي إليه بنبأ الهجرة: «أَخْرِجْ عَنِّي مَنْ عِنْدَكَ».

ولاشك أن السرية في رسم الخطط هي ضمان النجاح وعدته، ولقد بلغ الاحتياط مداه باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم، والاستعانة على ذلك بخبير يعرف مسالك البادية ومسارب الصحراء ـ مع أنه كان مشركاً ـ مادام يملك خبرات جيدة ومحل ثقة في تنفيذ المهمة.

واختياره ﷺ لشخصيات عاقلة رزينة تتوقد ذكاء لتقوم بالمعاونة في شؤون الهجرة، ووضع ﷺ كل فرد في عمله المناسب، فقام عليٌّ رضي الله عنه بدوره المنوط به ونام في فراش النبيّ ﷺ، وحققت تلك الفكرة أهدافها وخرج رسول الله ﷺ والمشركون معلقة أبصارهم بمضجع الرسول ﷺ، وأحكم ﷺ أموره وأوصى علياً رضي الله عنه برد الودائع إلى أهلها، وكان عبد الله بن أبي بكر يقوم بدور جمع المعلومات وكشف تحركات العدو، وأسماء ـ ذات النطاقين ـ تحمل التموين من مكة إلى الغار وسط جنون المشركين بحثاً عن النبيّ ﷺ ليقتلوه، وعامر بن فهيرة الراعي يسوِّي أقدام المسيرة التاريخية بأغنامه كيلا يستدل بها القوم ويمد النبيّ ﷺ وصاحبه باللحم واللبن. وعبد الله بن أريقط ـ دليل الهجرة الأمين، وخبير الصحراء البصير ـ ينتظر في يقظة إشارة البدء من الرسول الكريم ﷺ، ليأخذ الركب طريقه من الغار إلى المدينة، فهذا تدبير للأمور على نحو رائع دقيق، واحتياط للظروف بأسلوب حكيم، ووضع كل شخص في مكانه المناسب، وسد لجميع الثغرات، وتغطية جميلة لكل مطالب الرحلة، واقتصار على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة ولا إسراف، لقد أخذ ﷺ بالأسباب المعقولة أخذاً قوياً حسب استطاعته مع توكله على الله وتفويض أمره إليه(1).

إن تخطيط الرسول ﷺ للهجرة النبوية المباركة دليل واضح على أن التخطيط ضروري لمزاولة أي نشاط بشري مهما يكن نوعه، يستوي في ذلك أن يكون القائم به فرداً أو جماعة، وأن يستهدف شأناً من شؤون السلم أو شؤون الحرب، وإذا كان التخطيط ـ اصطلاحاً ـ من مستحدثات العصر فإنه معنى يضرب بجذوره في أعماق الزمن، حيث اقترن بحياة الفرد وحياة المجتمع منذ كان الإنسان على الأرض، فقد شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يزوده بهذه القدرة المستمدة من العقل لحفظ الجنس البشري حتى تستمر الحياة عبر مراحل نموها المتعاقبة،

(1) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص 361 ـ 363.

وكل امرئ خلقه الله في هذه الحياة يباشر التخطيط تلقائياً في جميع خطواته وفي مختلف تصرفاته دون أن يدري المدلول العلمي لما يقوم به.

فالصانع والزارع والعامل كل منهم يخطط ليومه وغده، إذ يحدد مطالبه والتزاماته، ويحدد قدراته على الوفاء بها مستعيناً في ذلك بحصيلة تجاربه السابقة ومقدراً للظروف الطارئة المحتملة، وهكذا فالتخطيط لا بد أن يكون الإنسان مستخدماً له في سائر حياته، لكي يستطيع أن يصل إلى أهدافه المرجوة[1].

إن التخطيط من الفطرة التي فطر الله النَّاس عليها؛ ولذلك استخدم رسول الله ﷺ التخطيط في كل مراحل دعوته إيماناً منه بأن التخطيط أساس من الأسس في إنجاح أي عمل من الأعمال، ولا بد منه للبلوغ إلى المقصود وأنه ركيزة أساسية يقوم عليها هذا الدين؛ ولذلك فإن الإسلام قد دعانا إلى الأخذ به، بل وجعله نظاماً لحياة المسلمين لأنه ضرورة لا بد منها[2] وهذا ينسجم مع الفهم الصحيح لمعنى التوكل على الله والإيمان بالقدر.

«إن العمل الإسلاميّ اليوم يتصدى لتحقيق أشرف وأعظم إنجاز في دنيانا وهو التمكين لدين الله في الأرض بإقامة الخلافة الإسلامية على رأس دولة الإسلام العالمية، التي تجمع كلمة المسلمين، وتحكم شرع الله في الأرض، وتسترد كل شبر أرض اغتصبت من الوطن الإسلاميّ، بل وتكسب أرضاً جديدة للإسلام، وذلك بتبليغ هذا الدين الحق إلى النَّاس كافة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله. فالأمر الطبيعي أن يسير العمل لتحقيق هذا الهدف العظيم بتخطيط دقيق، وألا يكون ارتجالياً أو ردود أفعال، فيقسم الهدف الكبير إلى أهداف مرحلية، وتوضع الخطة لكل منها، والوسائل اللازمة، ويتابع التنفيذ وهكذا»[3].

إن الاهتمام بأصول وقواعد التخطيط وممارسته في الحياة الدنيا وفق التصور الإسلاميّ الصحيح من الأسباب المهمة لتمكين دين الله.

ثالثاً: الإعداد الاقتصادي:

إن من أسباب التمكين أن تهتم الحركات الإسلامية بالجانب الاقتصادي، لأن القوة الاقتصادية هي عصب الحياة الدنيا وقوامها، والضعف فيها يقهر ولا يحسب له حساب إلا

---

(1) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص 359.
(2) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، ص 360.
(3) انظر: قضايا أساسية على طريق الدعوة للأستاذ مصطفى مشهور، نقلاً عن الدعاة والتخطيط، ص 28.

في ظل شرع الله حين يحكم، ولذلك ينبغي على الحركات الإسلامية أن تعتمد على الذات في موارد ثابتة، وهذا من النفرة التي أمرنا الله ـ عز وجل ـ بإعدادها لمواجهة الأعداء ونشر الدين، والاستغناء عن مد يد الاستجداء، مما يوفر للدعوة والدعاة حرية التحرك، واتخاذ القرار دون ضغوط كابحة للنشاط الإسلاميّ من أي جهة كانت، إضافة إلى ما توفره القوة المادية من ثقل إعلامي واجتماعي وسياسي هي بأمس الحاجة إليه[1]. كما أن حاجات العمل المتعددة تحتاج إلى أموال طائلة لتغطيتها، والمطلوب من الحركات الإسلامية أن تعد من رجالها من التجار المسلمين من تظهر على سلوكه أخلاق الإسلام في التعاملات التجارية، وتزوده بالخبرات الميدانية بحيث يقتحم مع إخوانه مجالات التجارة الدولية والأسواق العالمية، ويعمل على توحيد جهود التجار المسلمين، لإيجاد شبكات للتعاون المثمر لمقارعة الشركات اليهودية والشيوعية والنصرانية وبذل ما في وسعهم من أجل هيمنة الاقتصاد الإسلاميّ على الأسواق العالمية وتحرير شعوب المسلمين من سيطرة الفكر الرأسمالي الدخيل والشيوعي.

إن على التجار المسلمين أن يستوعبوا علم الاقتصاد الإسلاميّ، الذي ينسجم مع تصور الإسلام للكون والإنسان والحياة، والذي في طياته حل لمتطلبات العصر الحديث، وبخاصة أن العالم الإسلاميّ يمتلك من الطاقات البشرية والمادية ما يمكنه من بناء اقتصاد سليم قوي يواجه التيارات الاقتصادية المتصارعة، وينقذ البشرية من الويلات الاقتصادية التي تعيشها.

وعليهم أن يسعوا إلى أسلمة المؤسسات الاقتصادية؛ بحيث تنسجم مع النظام الإسلاميّ على جميع المستويات، كما عليهم أن يعمقوا فاعلية المؤسسات الإسلامية حتى يتم تطويرها ويستفاد من أخطائها وتعالج العوائق التي تحدث في طريقها، ولقد نجحت الحركة الإسلامية في تركيا نجاحاً جيداً وأصبحت لها مؤسسات قوية ثابتة، ولها تأثير وأداء متميز في الشارع التركي. ولقد استطاعت الحركة الإسلامية في السودان أن تخوض تجارب رائدة في البنوك الإسلامية وفي المؤسسات الاقتصادية وتوظيف فريضة الزكاة لحل مشاكل المسلمين وكذلك الحركات الإسلامية في اليمن والأردن وماليزيا وأندونيسيا وأصبح ـ بحمد الله ـ لها بنوك إسلامية ومستشفيات ومؤسسات عملاقة إلا أن الأعداء يضيقون عليها ويحاربونها.

إن الحركات الإسلامية فهمت معادلة المال وهيمنة الاقتصاد فهماً جيداً وأصبحت ترى التاجر المسلم من صناع الحياة، بل هم صناع الصناع. يقول الأستاذ محمد أحمد الراشد في

(1) البيان العدد 118 جمادى الآخرة 1418 هـ، ص 9.

هذا الصدد: «وعلى خطة الدعوة أن تتوب توبة نصوحة من إسرافها القديم في تعليم الدعاة كراهة المال وحب الوظائف الحكومية. .»[1].

وطلب في كتابه (صناعة الحياة) من الدعاة أن يهتموا بجمع المال ولينزل منهم نفر إلى السوق، لأن في ذلك مردود دعوي، وذكر اليهود الذين استحوذوا على الأموال والأسواق ونحن لا نجيد إلا سبَّهم ونضجر من المارون والأقباط والبهرة والقاديانية والمبتدعة والأقليات إذ كان منهم السبق إلى المال، بتسهيل الدوائر الاستعمارية لهم ذلك في فترة الاستعمار جزءاً، وبمساعدة من قوى خفية أخرى، ولكننا لم نحسن غير سبِّهم وشتمهم.

إن قوة الاقتصاد الإسلاميّ ووصول الأموال إلى قبضة المسلمين ستكون عاملاً من عوامل قوة الدعوة الإسلامية وستحكم المنظومة الإسلامية بالاقتصاد العالمي وستعرض على العالم سوقاً إسلامياً ومنظومة شركات إسلامية.

وسترتفع رايات المسلمين ومعنوياتهم عندما يرون رجال المال المسلمين الذين ينفقون أموالهم سراً وعلانية ابتغاء مرضاة الله، وينطلق الدعاة في كل مكان مبشرين ومنذرين وخلفهم مؤسسات وشركات تدعمهم وتقف بجانبهم، كل على ثغر، وكل يسعى لتمكين دين الله في الأرض.

إن الإعداد المالي والقوة الاقتصادية ستكون في خدمة الأمة والدعوة والسياسة والفكر، وسيسند حركة التغيير الشاملة من أجل التمكين لدين الله في الأرض.

ولا بد أن تهتم الحركات الإسلامية بميدان الصناعة والزراعة والعقار والاستيراد والتصدير، وبخاصة في البلاد الحرة التي لاينال أموالنا فيها ظلم، وفي العالم الكبير الفسيح متسع للاستثمار[2].

إن الهيمنة على الاقتصاد وتحكيم شرع الله فيه جهاد عظيم وله آثار على المجتمعات البشرية من أهمها:

1 ـ إنقاذ البشرية ـ وبخاصة المسلمين ـ من مساوئ الأنظمة الوضعية، حتى أن علماء الغرب يقولون بذلك، يقول جاك أوستري: «إن طريق الإنماء ليس محصوراً في المذهبين المعروفين، بل هناك مذهب اقتصادي ثالث راجح هو المذهب الإسلاميّ»[3]، وبذلك يتحرر

---

(1) صناعة الحياة، ص 46.

(2) صناعة الحياة، ص 46، 47.

(3) الإسلام والتنمية الاقتصادية: جاك أوستري، ترجمة نبيل الطويل، ص 1000.

المسلمون من التبعية الاقتصادية ويبرز للعالم هذا النظام ومن هنا تأتي أهمية طرح النظام الاقتصادي في الإسلام، وبيان الأحكام الشرعية لمعالجة جميع مشاكل الحياة.

2 ـ استغلال الموارد البشرية والمادية الإسلامية استغلالاً اقتصادياً يؤدي إلى الرفاهية العامة للشعوب الإسلامية مما يساعد المسلمين على قيام الصناعات الثقيلة وبذلك تتحقق للمسلمين القوة والمنعة التي تحرر أراضيهم المحتلة كل ذلك وفق برامج تنمية متكاملة، فالإسلام ليس مجرد تراث بل فيه طريق التنمية السليم، وبذلك لايبقى العالم الإسلامي مجرد سوق مالي وسلعي للشرق أو الغرب.

3 ـ وجود الاقتصاد الإسلامي يؤدي إلى الوحدة السياسية بين شعوب الإسلام، حيث إن الاقتصاد ينطلق من الشريعة، والشريعة تنادي بوحدة المسلمين لأن وحدة الاقتصاد تؤدي إلى وحدة السياسة، وهذا ما تسعى إليه دول غير إسلامية مثل دول السوق الأوروبية المشتركة.

4 ـ تحقيق القوة الاقتصادية والسياسية يؤدي إلى عودة الإسلام إلى أيامه الزاهرة ويؤدي بالتالي إلى سيطرة الإسلام، على مسرح السياسة والاقتصاد في العالم، وتصبح الأمة الإسلامية خير أمة، وأقوى قوة فكرية وحضارية ومادية في العالم.

5 ـ إذا بني الفكر ـ وبخاصة الفكر الاقتصادي الإسلاميّ ـ على أساس سليم من العقيدة والأسس ـ التي أوضحناها ـ فإن الطريق إلى الاكتشافات والمخترعات الحديثة سيكون مفتوحاً، وستوظف المفاهيم إلى واقع حي عملي في معترك الحياة، وبذلك نبعد جميع الأفكار الدخيلة على الأمة الإسلامية، من رأسمالية واشتراكية.

إن العقيدة الإسلامية ماجاءت إلا لهداية البشر إلى مافيه السعادة في الدارين[1]، والتي من ضمنها الجانب المادي الاقتصادي.

ولقد اهتم الإسلام بالموارد المالية وبين طرق الكسب المشروع، كالبيوع والميراث والوصايا والهبات وغيرها، وأوضح طرق الكسب غير المشروع، كالربا والغرر، والغش والاحتكار وغيرها وكانت موارد الدولة الإسلامية في زمن النبيّ ﷺ والخلفاء من بعده من الزكاة، والغنائم والفيء، والخراج والتجارة.

إن الحركات الإسلامية التي تسعى لتقوية جوانبها الاقتصادية والمالية وتوظيفها في دعوة الله تعالى قد أخذت بسبب مهم من أسباب التمكين المادي.

---

(1) انظر: النظام الاقتصادي في الإسلام لمحمود الخطيب، ص 74، 75.

الاكتفاء الذاتي

إن من القواعد المهمة في الاقتصاد الإسلامي: العمل على تحقيق الاكتفاء الذاتي للأمة، بمعنى أنها يجب أن يكون لديها من الخبرات والوسائل والأدوات ما يجعلها قادرة على إنتاج ما يفي بحاجاتها المادية والمعنوية، وسدِّ ثغراتها المدنية والعسكرية، عن طريق ما يسميه الفقهاء: فروض الكفاية، وهي تشمل كل علم أو عمل أو صناعة أو مهارة يقوم بها أمر النَّاس في دينهم أو دنياهم، فالواجب عليهم حينئذ تعلمها وتعليمها وإتقانها حتى لا يكون المسلمون عالة على غيرهم، ولا يتحكم فيهم سواهم من الأمم الأخرى.

وبغير هذا الاستغناء والاكتفاء، لن يتحقق لهم العزة التي كتب الله لهم في كتابه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8].

وبغيره لن يتحقق لهم الاستقلال والسيادة الحقيقية، وهو ماذكره القرآن: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: 141].

ولن يتحقق لهم مكان الأستاذية والشهادة على الأمم، وهو المذكور في قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143].

فلا عزة لأمة يكون سلاحها من صنع غيرها، يبيعها منه ما يشاء، متى شاء، بالشروط التي يشاء، ويكف يده عنها أنى شاء، وكيف شاء.

ولا سيادة حقيقية لأمة تعتمد على خبراء أجانب عنها في أخص أمورها، وأدق شؤونها، وأخطر أسرارها.

ولا استقلال لأمة لا تملك زراعة قوتها في أرضها، ولا تجد الدواء لمرضاها، ولاتقدر على النهوض بصناعة ثقيلة، إلا باستيراد الآلة والخبرة من غيرها.

ولا أستاذية لأمة، لاتستطيع أن تبلغ دعوتها عن طريق الكلمة المقروءة أو المسموعة، أو المصورة المرئية إلا بشرائها من أهلها القادرين عليها. ولا بد لتجار المسلمين ورجال الأموال وأهل التخصص في الاقتصاد من حركات إسلامية وعموم الأمة أن يسلكوا سبيل الاكتفاء والتحرر من التبعية الغربية أو الشرقية، ومن الأمور التي تعين على الاكتفاء:

1 ـ ضرورة التخطيط:

لا بد من التخطيط القائم على الإحصاء الدقيق، والأرقام الحقيقية، والمعرفة اللازمة بالحاجات المطلوبة ومراتبها ومدى أهميتها، والإمكانات الموجودة، ومدى القدرة على تنميتها والوسائل الميسورة لتلبية الحاجات، والتطلع إلى الطموحات.

2 ـ تهيئة الطاقات البشرية وحسن توزيعها:

ويكون ذلك بتطوير النظام التعليمي والتدريبي، بحيث يهيئ لها الطاقات والكفايات البشرية المتنوعة في كل مجال تحتاج إليه، وأن تطور نظامها الإداري والمالي بحيث تنمي هذه الطاقات، وتحسن تجنيدها، وتوزيعها على شتى الاختصاصات بالعدل، اهتداء بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122]، وملء الثغرات التي تهمل ـ عادة أو غفلة ـ بالحوافز أو بالالتزام.

ووضع كل إنسان في المكان المناسب له، والحذر من إسناد الأمر لغير أهله: «**إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»(1). ومن ثَمَّ كان حرص الإسلام على الثروة البشرية، والمحافظة عليها والعمل على تنميتها: جسمياً وعقلياً وروحياً وعلمياً ومهنياً.

3 ـ حسن استغلال الموارد المتاحة:

بحيث لا نهدر شيئاً منها، ونحافظ عليها، باعتبارها أمانة يجب أن تُرعى، ونعمة يجب أن يُشكر الله تعالى باستخدامها أحسن استخدام، وأمثله.

ويحسن بنا هنا أن نشير إلى قوله تعالى في الوصية بمال اليتيم: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الإسراء: 34].

وقد تكرر ذلك في القرآن الكريم بهذه الصيغة نفسها، فلم يكتفِ القرآن منّا أن نقرب مال اليتيم بطريقة حسنة وحسب، بل بالتي هي أحسن، فإذا كانت هناك طريقتان لتنمية مال اليتيم والمحافظة عليه: إحداهما حسنة جيدة، والأخرى أحسن منها وأجود، كان الواجب علينا أن نستخدم التي هي أحسن وأجود، بل حرام علينا ألا نستخدم إلا التي هي أحسن، كما هو مفهوم التعبير بالنهي وأسلوب القصر.

ومال الأمة في مجموعه أشبه بمال اليتيم، والمؤسسات التي ترعاه أشبه بولي اليتيم ولهذا يجب أن نحافظ عليه وننميه بالتي هي أحسن.

---

(1) مشكاة المصابيح رقم (5439).

obeikandl.com

4 ـ التنسيق بين فروع الإنتاج:

قال رسول الله ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعينة**[1]، **ورضيتم بالزرع، وتبعتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد في سبيل الله سلَّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم**»[2]، ففي هذا الحديث إشارة إلى أن الاكتفاء بالزراعة وحدها، وما يتبعها من الإخلاد إلى الحياة الخاصة المعبَّر عنها باتباع أذناب البقر، وترك الجهاد في سبيل الله ومايطلبه من إعداد القوة، يُعرّض الأمة لخطر الذل والاستعمار، وهذا بالضرورة يحتاج إلى نوع من الصناعات لابد أن يتوافر في الأمة، إذ ما لايتم الواجب إلا به فهو واجب. ولقد أنزل في كتابه سورة الحديد تنبيهاً منه على أهمية هذا المعدن الخطير، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: 25]، ففي قوله: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ إشارة إلى الصناعات الحربية، وفي قوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، إشارة إلى الصناعات المدنية وبهذا تكتمل قوة الأمة في سلمها وحربها.

5 ـ تشغيل الثروة النقدية:

بحيث تخرج النقود من قمقم «الكنز» إلى ساحة الحركة، والعمل، فإن النقود لم تخلق لتحبس وتكتنز، وإنما خلقت لتتداول، وتنتقل من يد إلى يد: ثمناً لبيع أو أجراً لعمل، أو عين ينتفع بها، أو رأس مال لشركة أو مضاربة، فهي وسيلة لأغراض شتى، وليست غرضاً في ذاتها.

هذه بعض الخطوط العريضة للوصول إلى الاكتفاء الذاتي وتحرير الأمة من العبودية الاقتصادية لغيرها والاقتراب بها نحو تمكين دينها، كما ننبه على أهمية توزيع الزكاة ورعاية أموال الأوقاف ووضعها في محلها الصحيح فيه من الثروات الهائلة فلا بد من تحرير الأوقاف فإنها تصل إلى الملايين في البلدان الإسلامية ولم تستثمر كما ينبغي من أجل تقوية دعوة الله والتمكين في الأرض.

رابعاً: الإعداد الإعلامي:

للإعلام أهميته الخطيرة في العصر الحديث، وقد نال اهتماماً بالغاً من كل الدول حتى أنشئت له كليات خاصة وهي «كليات الإعلام» وأنشئت له وزارات خاصة وهي (وزارات

---

(1) العينة: أن يبيع السلعة بثمن معلوم لأجل ثم يشتريها منه في الحال بأقل.

(2) صحيح الجامع الصغير، ص 433.

الإعلام) التي تشرف على سائر وسائل ونواحي الإعلام في الدولة ويعين وزير لها من أكفأ الوزراء وأشدهم ولاء لنظام الحكم القائم في الدولة، وذلك لخطره الكبير، وأهميته في هذا العصر الذي انتشرت فيه وتقدمت العلوم الحديثة والمخترعات المتعددة والنظريات المختلفة، فللإعلام تأثيره على الفرد والأسرة والمجتمع والدولة والمجتمع الدولي كله.

وتتضح أهمية الإعلام في الآتي:

1 ـ تزويد النَّاس بالمعلومات والحقائق وغيرها من ضروب المعرفة، وآخر الأحداث والأخبار، لتشبع رغبتهم الملحة للمعرفة، ويقوِّموا الأمور التي حولهم في المجتمع تقويماً عادلاً ويفهموا طبيعة البيئة التي يعيشون فيها ويتمكنوا من التكيف معها والتجاوب مع أفرادها.

2 ـ نشر الوعي والحقائق الثابتة وتثقيف العقول وتنوير الأذهان، ومحاربة الخرافات والأساطير والبدع الضارة حتى يتغير أسلوب الحياة وتتغير الأفكار إلى الأفضل والأحسن وذلك بعرض الجوانب الإيجابية من الحياة عرضاً إعلامياً مناسباً وعرض المعلومات والأفكار الحديثة والعصرية التي تؤدي لنهضة الأمة وزيادة وعيها وثقافتها.

3 ـ دفع عجلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وإحداث التغيير فيها للأفضل وذلك بتخطيط إعلامي سليم يتم به نقل التقنية الحديثة إلى أقصى مدى من البث والدعاية ويلازم هذا الإعلام ويواكب خطوات التقدم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي وشرح حقائقه وأهدافه.

4 ـ المحافظة على شخصية المجتمع بكل معتقداته وآدابه وتراثه وتاريخه وتعميق كل هذا بوسائل الإعلام المختلفة حتى يظل المجتمع متماسكاً بشخصيته المعروفة باستمرار.

5 ـ تحقيق الترابط التام بين الحاكم والمحكوم بحيث تنسجم وتتوافق القاعدة العريضة من المجتمع مع القمة مما يدفع المجتمع إلى التقدم السريع والعمل البناء.

6 ـ قلب الحكومات لإيجاد الاضطرابات: فقد يقوم الإعلام بذلك نتيجة للصراع الفكري أو الصراع الاجتماعي أو الصراع السياسي فتذاع أخبار وحقائق تثير النَّاس مما يخلق الفوضى في المجتمع، ويكون من نتيجة ذلك تغيير الوزارات أو قلب الحكومات أو تقرير مصائر الدول أو إيجاد الحقد والكراهية نحو طبقة معينة أو مجتمع معين[1] إلى غير ذلك من الأمور.

---

(1) انظر: فقه الدعوة الإسلامية والإعلام عند المودودي لفاروق الصاوي، ص 20، 21.

ولقد أرشد القرآن الكريم الأمة إلى الأخذ بأسلوب الإعلام في دعوة الخلق ونهج نهجاً متميزاً في إيصال الحقائق إلى النّاس فمثلاً نرى القرآن الكريم جعل الأحداث مدخلاً إلى قلوب الناص وعقولهم، لإرشادهم وتوجيههم لما فيه السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة.

فنجده ينزل في كثير من الأحيان إثر حادثة أو سؤال مراعياً في ذلك الوقت المناسب، وما نزل منه ابتداء فأسبابه قائمة في الواقع وإن لم يكن لحادثة معينة.

وقد سأل اليهود الرسول ﷺ عن هذه الظاهرة الغريبة، التي ما عهدوها من قبل في الكتب السماوية السابقة والتي كانت تنزل جملة واحدة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت اليهود: يا أبا القاسم، لولا أنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى، فنزل قوله تعالى ـ رداً على سؤالهم[1]:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

[الفرقان: 32 ـ 33].

إن نزول القرآن الكريم منجّماً حسب الأحداث والوقائع كانت له أهداف إعلامية عظيمة لا يمكن تحقيقها في مدة قصيرة من الزمن إلا بهذا الأسلوب المعجز، ومن أهم هذه الأهداف الإعلامية:

1 ـ مساعدة الرسول ﷺ على حل المشاكل الاجتماعية المتجددة، فمن ذلك أن عبد الله بن رواحة تزوج من أمة له سوداء، بعد أن أعتقها إثر ضربه لها، وهي أمة مؤمنة، فطعن عليه ناس من المسلمين، فقالوا: تزوج أمة، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة في أحسابهم[2]، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 221].

فكان العرف السائد في الجاهلية وحتى ظهور الإسلام أن التفاضل بين النّاس بالأنساب والأحساب فقط.. وكان هذا الحدث وما حصل فيه من استغراب وقيل وقال، قد أتاح

(1) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (1/ 42).
(2) تفسير الطبري (2/ 223).

الفرصة لإعلام النَّاس بمقياس الإسلام الحقيقي في التفاضل بين النَّاس وهو تقوى الله ـ عَزَّوَجَلَّ ـ والإيمان به وبرسوله ﷺ وهذا المقياس فيه رفع من شأن المؤمن وإعلام بشرفه على الكافر، ولو كان هذا المؤمن عبداً أو أمة، وكما لا يخفى فإن فيه تصغيراً لشأن الكافر وإعلاماً بتفاهته ولو كان أشرف النَّاس في حسبه ونسبه، ونزول هذه الآيات عقب هذا الحدث الذي هيأ النفوس وأثار انتباهها إعلام لكلا الطرفين بذلك[1].

2 ـ مساعدة الرسول ﷺ في الإجابة على الأسئلة الموجهة إليه من قبل المؤمنين أو الكافرين، فعندما بعث المشركون إلى اليهود بالمدينة يسألونهم عن أمره فقالت اليهود: سلوه عن أشياء ثلاث، فإن لم يجب عليها أو أجاب عنها جميعاً فهو ليس بنبي وإن أجاب عن اثنين ولم يجب عن الثالث فهو نبي وهذه الأمور الثلاثة هي:

ـ فتية فقدوا في الزمن الأول ما كان من أمرهم؟

ـ رجل بلغ شرق الأرض وغربها ما خبره؟

ـ وعن الروح؟

فسأله القرشيون عن هذه الأشياء، فوعدهم بالإجابة عليها في اليوم التالي ولم يقل: إن شاء الله «قال مجاهد: إن الوحي تأخر عنه اثنتي عشرة ليلة[2]، وقيل غير ذلك حتى كثر القيل والقال بين النَّاس وقال قائل قريش: وعدنا محمد غداً وقد أصبحنا لا يخبرنا بشيء، واشتد الحزن على الرسول ﷺ بسبب ذلك، حتى إذا تهيأت نفوس النَّاس وتوترت أعصابهم والتفتت أنظارهم لنتيجة هذا الحدث العظيم الذي يعتبر من أهم الأدلة والبراهين على صدق الرسول ﷺ وأنه مرسل من عند الله نزل الوحي من الله يقول بشأن الفتية: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: 9]. ونزل فيمن بلغ الشرق والغرب ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: 83]، ونزل في الروح ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: 85]. فأجاب عن اثنين من الأسئلة ولم يجب عن واحد، الأمر الذي جعل القرشيين وغيرهم يوقنون بصدق دعوى الرسول ﷺ بأنه مرسل وأنه صادق أمين كما عهدوه. وهكذا كان القرآن الكريم يجيب على كل سؤال يوجه إلى الرسول ﷺ، سواء كان هذا السؤال من المؤمنين، أو الكافرين، أو كان لغرض التثبت والتأكد أو للاسترشاد والمعرفة[3].

---

(1) انظر: الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم لمحمد الطلابي، ص 17.

(2) تفسير البغوي بهامش الخازن (4/ 181).

(3) انظر: الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، ص 18.

ولقد تعددت الأغراض الإعلامية من نزول القرآن منجَّماً، فبالإضافة إلى ماذكرنا ثمة أغراض أخر منها: رفع معنوية الرسول ﷺ من وقت لآخر بتبشيره بالنصر على الأعداء وحمايته، وفضح أعداء هذا الدين من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب، وتنبيه الرسول ﷺ وأصحابه من وقت لآخر على أخطائهم؛ من ذلك ما وقع للرسول ﷺ مع أسرى المشركين يوم بدر[1].

ولقد أرشد القرآن الكريم إلى الدستور الإعلامي في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر]. حيث استنبط متخصصو الإعلام من هذه السورة الدستور الإعلامي المكون من:

1 ـ العلم والإيمان.

2 ـ العمل الصالح.

3 ـ تبليغ الرسالة.

واستنبطوا قواعد الأسلوب الإعلامي في القرآن من قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٢٥ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ۝١٢٦ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧﴾ [النحل: 125 ـ 127].

فهذه الآيات وضعت قواعد وأسساً واضحة للأسلوب الإعلامي، القولي منه والعملي التي لا بد للمسلمين أن يلتزموا بها عند قيامهم بتبليغ هذه الرسالة إلى النَّاس، إذا أرادوا تحقيق أهدافهم وغاياتهم[2] ومن أهم هذه القواعد:

1 ـ الحكمة:

هي حسن اختيار الأسلوب الإعلامي المناسب للمخاطبين وتنويعه حسب الظروف والزمان والتدرج في إيصال الرسالة الإعلامية حتى لا يشق على المخاطبين استيعابها.

(1) انظر: الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، ص 18 ـ 21.

(2) المصدر نفسه، ص 33.

obeikandl.com

2 ـ الموعظة الحسنة:

هي التوجيهات التي يقدمها صاحب الرسالة للناس عن طريق الأوامر والنواهي المقرونة بالترغيب والترهيب بقصد نصحهم وإرشادهم معتمداً على إيقاظ شعورهم ومحاولة إثارة انفعالاتهم نحو ما يدعو له بعد اطمئنانهم له نفسياً واقترابهم منه[1].

3 ـ الجدال بالتي هي أحسن:

فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق أو كان داعية إلى باطل يجادل باللين واللطف بلا تحامل عليه ولا تقبيح له حتى يطمئن إلى صاحب الرسالة ويشعر أن هدفه هو الوصول إلى الحقيقة لا غير.

4 ـ الجهاد:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل: 126]، فلا بدّ من الدفاع عن هذه العقيدة وعن حريتها وحرية القائمين على تبليغها «لكي لا تهون في نفوس النَّاس فالدعوة المهينة لا يعتنقها أحد»[2].

5 ـ القدوة الحسنة:

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: 126]. فالعفو عند المقدرة في بعض الأحيان يكون أعمق أثراً وأكثر فائدة من الانتقام، والضرب بيد من حديد على يد الظالم يصبح حتمياً؛ لأن فيه دفع الضرر وإعلاماً لمن خلفهم ولكل من سولت له نفسه الإضرار بهذه الدعوة وأهلها أن هذا هو المصير الذي ينتظره، والجدير بالذكر أن هاتين القاعدتين أعني (الجهاد والقدوة الحسنة) يمثلان الأسلوب الإعلامي العملي في الإسلام[3].. وبعد أن أرشدنا القرآن الكريم إلى القواعد الأساسية للأسلوب الإعلامي الناجح الذي تنتهجه في نشر هذه الدعوة الخالدة.. أشار إشارة واضحة إلى ما سيلاقيه الرسول ﷺ والمسلمون من أساليب إعلامية مضادة شيطانية للقضاء على هذه الرسالة والنيل منها، فحثهم على الصبر في هذا الصراع الإعلامي المرير بين الحق والباطل وأن العاقبة ستكون له وللمؤمنين والخزي والفشل لأعداء هذا الدين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: 127 ـ 128]، ومن الملاحظ أن القرآن الكريم قد

---

(1) انظر: مذكرات في الدعوة الإسلامية لعبد الغفار عزيز، ص 5.

(2) في ظلال القرآن (4/ 2202).

(3) انظر: الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، ص 35.

انتهج هذا الدستور مع الرسول ﷺ، فأول مانزل من القرآن الكريم هو إعلام الرسول ﷺ بحقيقة «قاعدة التصور الإيماني العريض»[1]، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق 1 ـ 5].

«فالله هو الذي خلق وهو الذي علَّم فمنه البدء والنشأة ومنه التعليم والمعرفة. . والإنسان يتعلم ما يتعلم ويعلِّم ما يَعلَم. . فمصدر هذا كله هو الله الذي خلق والذي عَلَّم»[2].

وكانت هذه هي البداية مع الرسول ﷺ فأول ما نزل عليه من القرآن الكريم كان الهدف منه إعلام الرسول ﷺ بقاعدة التصور الإيماني والإيمان بها، فلما علم هذه القاعدة وآمن بها أمره الله تعالى «بالعبادات الفاضلة والقاصرة عليه ﷺ»[3]، ومن أهمها قراءة القرآن وصلاة الليل قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: 1 ـ 4].

ولما علم الرسول ﷺ حقيقة قاعدة «التصور الإيماني» وعمل بمقتضاها، صار عنده استعداد ذاتي لتصدير هذه الرسالة إلى النَّاس، فعندها أمره الله تعالى «بإعلان هذه الدعوة والصدع بها»[4].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر: 1 ـ 3].

كما أن القرآن الكريم غني بالأساليب الإعلامية سواء كانت قولية أو عملية، فمن القولية مثلاً: أسلوب الهدم والبناء، والتقابل، والتبشير بغد أفضل، والجدل، والتهديد، وتشويه الصورة، ومن الأساليب الإعلامية العملية: القدوة الحسنة، والعفو عند المقدرة، والثبات على الحق[5].

ولقد مارس الرسول ﷺ المنهج القرآني الإعلامي وقام ببعض الأعمال العظيمة التي حققت أهدافاً إعلامية رفيعة وساهمت في انتشار هذا الدين والتمكين له في قلوب العباد وفي البلاد فمثلاً:

---

(1) انظر: الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، ص 35.
(2) في ظلال القرآن (6/ 3939).
(3) تفسير السعدي (7/ 508).
(4) المصدر نفسه.
(5) انظر: الأسلوب الإعلامي في القرآن، ص 36 ـ 60.

obeikandl.com

1 ـ الهجرة:

اضطهد المكيون الرسول ﷺ حتى وصل بهم الأمر إلى التفكير في التخلص منه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30]، فأمره الله تعالى بالهجرة إلى المدينة، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40].

فخرج الرسول ﷺ ومعه أبو بكر الصديق متوجهاً إلى المدينة تنفيذاً لأمر الله تعالى له ولم يكن خروج الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة خوفاً ولا هرباً من المشركين «بل تعليم للأمة ضرورة أخذ الحيطة في الأزمات وليقف على تحركات قريش ويعلم مقاصدهم ولينكشف ما اعتزموا عليه»[1].

وكان هذا العمل من الرسول ﷺ من أبلغ الأساليب الإعلامية في الإسلام وكانت له آثار إعلامية في داخل مكة وخارجها، فأهل مكة شعروا بأن هؤلاء لم يتركوا أهلهم ووطنهم وأموالهم إلا من أجل قوة إيمانهم بصدق ما هم عليه من حق، كما أن هذه الهجرة «أوجدت فراغاً كبيراً في مكة ولفت هذا الفراغ المكين للتغييرات التي حدثت في مجتمعهم ومن أهمها.. ظهور هذا الدين[2] ولم تقتصر آثار الهجرة على مكة وحدها «فإن وجود عناصر مكية في المدينة لفت انتباه جميع من فيها وفي ذلك إعلان كبير عن هذا الدين»[3].

ومن هنا كانت الهجرة أسلوباً إعلامياً فريداً قلّ أن يكون له مثيل في التاريخ[4].

2 ـ بناء المسجد:

قال تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة 108].

سواء كانت هذه الآية نزلت في قباء أو المسجد النبوي الشريف فإن الملاحظ أن أول عمل قام به الرسول ﷺ عند قدومه إلى المدينة هو بناء مسجد، ولم يكن الهدف الوحيد من هذا المسجد هو الصلاة بل كان مركزاً إسلامياً عاماً يجتمع فيه المسلمون من جميع القبائل

(1) تفسير السعدي (2/ 236).
(2) الإعلام في صدر الإسلام، عبداللطيف حمزة، ص 135.
(3) الإعلام في صدر الإسلام، ص 135.
(4) انظر: الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، ص 62.

ليتعلموا فيه أمور دينهم[1] ويقول الدكتور إبراهيم إمام: «أراد النبيّ ﷺ ـ فيما يبدو ـ أن يبني مكاناً لا ينتمي إلى هذه القبيلة أو تلك ولا يجتمع فيه أفراد من أسرة خاصة بل أن يشيد مكاناً للجميع وهو بيت الله»[2].

وفي هذا إعلام لجميع المسلمين الموجودين في المدينة وغيرها أن هذا الدين دين الله، وأنه يقضي على العصبيات مهما كانت وعلى أي أساس وجدت، وأن مقياس التفاضل فيه إنما هو بتقوى الله عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات 13]، فلو أقام المسجد في بيت من بيوت إحدى القبيلتين الموجودتين في المدينة لوجدت القبيلة الأخرى في نفسها شيئاً من ذلك واعتبرته تفضيلاً لها، فكان هذا العمل من الرسول ﷺ فيه من الحكمة ما لا يخفى.

والحقيقة أنه ما من مكان في الأرض يستطيع تحقيق ما يحققه المسجد من توحيد في الكلمة والجهود والقضاء على العصبيات إذا وجد من يحسن الاستفادة منه من الناحية الإعلامية[3].

3 ـ بيعة الرضوان:

قال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18].

خرج رسول الله ﷺ مع بعض أصحابه وكانوا نحواً من ألف وخمسمائة من المدينة قاصدين بيت الله الحرام للزيارة، وكان هذا بعد غزوة الأحزاب بعام «فلما اقتربوا من مكة وجدوا قريشاً تستعد لقتالهم، فبعث إليهم الرسول ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه يقترح عليهم عقد صلح بين الفريقين، وسرت شائعة بأن عثمان قد قتل»[4]، فلجأ الرسول ﷺ إلى أسلوب إعلامي يشعر القرشيين بقوة المسلمين وأنهم على استعداد لقتالهم والانتصار عليهم، فجمع أصحابه ودعاهم إلى المبايعة، فبايعوه تحت شجرة على قتال المشركين وألا يفروا حتى يموتوا؛ فلما علمت قريش بهذه البيعة وأن المسلمين عازمون على الدخول في الحرب معهم دخل الرعب في قلوبهم واضطروا في الدخول إلى المفاوضات السلمية التي كانت الهدف

---

(1) انظر: الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، ص 62.
(2) الإعلام الإسلاميّ لإبراهيم إمام، ص 73.
(3) انظر: الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، ص 62.
(4) الإعلام في صدر الإسلام، ص 161.

obeikandl.com

الأساسي للرسول ﷺ من استخدام هذا الأسلوب؛ وكانت قريش ترفض هذه المفاوضات فعقد معهم «هدنة الحديبية»، التي ذكر الله تعالى ـ أنها فتح للمؤمنين وامتنَّ بها على رسوله ﷺ بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح 1].

4 ـ البعثات النبوية:

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1].

في هذه الآية الغاية التي من أجلها أنزل القرآن على الرسول ﷺ وهي إنذار العالمين وتخويفهم من بأس الله ونقمته وبيان رضا الله من سخطه. وفي هذا دلالة واضحة على أن هذه الرسالة عالمية «وغايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد إلى عهد ومن نهج إلى نهج عن طريق هذا الفرقان الذي نزله الله على عبده؛ ليكون للعالمين نذيراً»[1].

وإذا كانت هذه الدعوة عالمية فلا بد أن يكون إعلامها كذلك، فالرسول ﷺ والمسلمون مكلفون بتبليغ هذه الرسالة إلى جميع النَّاس بشتى الأساليب الإعلامية.

ولذا فإننا نرى الرسول ﷺ عند أول فرصة وجدها بعد صلح الحديبية قام بإرسال البعوث الدينية إلى القبائل العربية المجاورة وإلى الأمم خارج الجزيرة العربية للتبشير بهذه الرسالة تنفيذاً لأمر الله تعالى بتعميم هذه الرسالة.

ولقد حقق هذا النوع من الأساليب عدّة أهداف، من أهمها:

1 ـ إشعار العرب والعجم وغيرهم «أن الإسلام ليس خاصاً بالعرب وحدهم ولكنه عام لجميع النَّاس»[2].

2 ـ قبول هذه الدعوة والترحيب بها من قبل بعض الأمراء والملوك الموجهة إليهم، كما فعل المقوقس والنجاشي وإن كان البعض رفضها وأساء الرد على صاحبها كما فعل كسرى.

وهذا النوع من الأساليب يستخدم في عصرنا هذا لتوثيق الروابط السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين الدول عن طريق السفارات والمبعوثين الدبلوماسيين[3]. ومن خلال هذه المعالم القرآنية والممارسة النبوية الشريفة نتيقن أن الاهتمام بالإعلام وتوظيفه لخدمة الدعوة والتمكين لدين الله من الوسائل المهمة واللازمة للحركات الإسلامية المعاصرة، ولقد

(1) في ظلال القرآن (5/ 2548).

(2) الإعلام في صدر الإسلام، ص 155.

(3) انظر: الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، ص 65.

استطاعت بعض الحركات الإسلامية في تركيا أن تستخدم القنوات الفضائية والإذاعية والتلفزيونية والجرائد والمجلات لخدمة الدعوة الإسلامية وحققت نتائج مبشرة في هذا الميدان وكذلك الحركة السودانية التي تحاول أن تجعل من وسائل الإعلام وسيلة لخدمة الإسلام في العالم وأثبتت للعالم أجمع أن الكوادر الإسلامية قادرة على أن تقدم للعالم أروع الأمثلة في خدمة القضايا الإنسانية من خلال التصور الإسلاميّ.

إن الأخذ بالوسائل الإسلامية المعاصرة يساعد الحركات الإسلامية والدعاة إلى الإسلام عموماً بالتعريف بأهداف الدعوة ومقاصدها، ليعلم النَّاس أن قضية الإسلام قضية عادلة، لا كما يصورها الأعداء بنعوت وأسماء زائفة تخالف الحقيقة. إن في عصرنا يمكن توظيف وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية للقيام بوظيفة البلاغ المبين، وإيصال رسالة الإسلام إلى كافة الفئات الاجتماعية؛ حيث يستفيد الدعاة من التطور التقني الهائل في مجالات الاتصال لتبليغ دعوتهم ونشر أفكارهم وعقيدتهم[1]. ولقد ترك لنا الداعية الكبير والعالم القدير زعيم الجماعة الإسلامية في باكستان العلامة أبو الأعلى المودودي تجربة رائعة في توظيف المجال الإعلامي للدعوة الإسلامية تركت آثاراً على المحيط المحلي للدعوة والمحيط العالمي واستفاد من كافة الوسائل الإعلامية المتاحة لديه من صحافة، ومؤلفات، ومحاضرات، ومجالس، ومراسلات ومكاتبات، وفتاوى وتفسير وقدوة حسنة وخدمات اجتماعية، ولقاءات في الإذاعة وأثمرت تلك الجهود عن ظهور آثار عالمية ونجحت في تحقيق بيان الإسلام للناس:

أ ـ الآثار المحلية:

1 ـ إنقاذ المسلمين من خدعة القومية الهندية الواحدة.

2 ـ هدم سيطرة الحضارة الغربية على المسلمين.

3 ـ جمع الرأي العام على المطالبة بتطبيق الشريعة.

4 ـ المساهمة الفعالة في قيام باكستان.

5 ـ إزالة الجمود الديني والمزج بين القديم والحديث.

6 ـ تكوين عمل منظم لإعادة الإسلام عن طريق الجماعة الإسلامية.

(1) البيان، العدد 118 ص 10.

7 ـ إبراز أخلاق الإسلام السياسية ونظافتها على عكس السياسة المعاصرة.

8 ـ إثراء الأدب والفكر الإسلاميّ.

9 ـ جمع شمل العلماء على معالي الأمور.

10 ـ اتساع دائرة التعاون وخدمة الخلق.

11 ـ إبراز الوجه الشمولي للإسلام(1).

ب ـ آثار إعلام المودودي العالمية:

1 ـ توعية العرب والمسلمين بحقيقة الإسلام.

2 ـ فضح التآمر الصليبي وغارته على العالم الإسلاميّ.

3 ـ تنشيط وإثراء البحوث والدراسات الإسلامية على العالم.

4 ـ إقناع النَّاس بالإسلام(2).

إن الاخذ بوسائل الإعلام الحديثة تعين الدعاة إلى الله على توصيل الأمور الآتية إلى النَّاس:

1 ـ **الدعوة إلى الله**: بتعريف النَّاس بحقيقة الإسلام، ونظرته للخلاق العليم، والكون، الحياة، والإنسان.

2 ـ **تعريف المسلمين بحقائق الدين**: من عقائد ومعاملات وسلوك وأخلاق، وتربيتهم تربية صالحة، وإعدادهم إعداداً يتناسب مع رسالتهم الإسلامية، ومسؤوليتهم في الحياة.

3 ـ **إبراز دور الإسلام**: وكيف أنه قام بإخراج النَّاس من الظلمات إلى النور ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، وكيف انتصرت القلة المؤمنة بتمسكها بدين الله.

4 ـ **استنفار الأمة للدعوة والجهاد**: وحشد الطاقات حتى تقوى الأمة وتصبح صفاً واحداً متيناً، وتكون مرهوبة الجانب فلا يطمع فيها الأعداء، ولايستخف بقوتها الكفار، بل يعملون ألف حساب.

---

(1) انظر: فقه الدعوة الإسلامية والإعلام عند المودودي، ص 383 ـ 389.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 304 ـ 407.

5 ـ **الرد على الشبهات**: التي يثيرها أعداء الإسلام التقليديون من يهود ونصارى ودحض مفترياتهم وإبطال حججهم الزائفة.

6 ـ **الرد على النظريات والمذاهب المادية الحديثة**: كالشيوعية والاشتراكية والرأسمالية والفاشية والنازية والوجودية والماسونية والصهيونية.. إلخ ودحض مفترياتها وبيان دين الله الحق عنها[1] وغير ذلك من الأمور.

إن من الأهمية بمكان الأخذ بوسائل الإعلام بحيث يوظفها العاملون في الدعوة الإسلامية لخدمة الإسلام والتمكين له في دنيا النَّاس.

خامساً: الإعداد الأمني:

إن من أهم أسباب التمكين أن ينشأ الحس الأمني للأفراد العاملين منذ دخولهم في العمل الجماعي، وأن تشكل لجان ومكاتب وتتحول مع توسع الحركة إلى مؤسسات ثم إلى وزارة بعد وصول الإسلاميين إلى الحكم.

أ ـ ولقد أشار القرآن الكريم إلى أهمية هذا الجانب في آيات عديدة منها:

1 ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ [التوبة: 120].

وتشير الآية الكريمة على أن كل نيل من العدو عليه جزاء[2] وأن استطلاع أخبار العدو، ومعرفة مواطن الضعف فيه، ومواقع آليته، ومنشآته يعتبر نيلاً لأنه يوصل للتخطيط السليم المؤدي إلى الظفر به.

2 ـ قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: 87].

وجه الاستدلال: أن يعقوب عليه السلام قد طلب من أبنائه أن يتحسسوا ويبحثوا عن يوسف وأخيه، وفي هذا إقرار من أحد أنبياء الله في جمع المعلومات عن الآخرين، ويعتبر جمع المعلومات من العناصر الأساسية في علم الاستخبارات، ويؤكد على مبدأ جمع المعلومات ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟﴾[3].

---

(1) انظر: فقه الدعوة الإسلامية والإعلام للمودودي، ص 26، 27.

(2) في ظلال القرآن (4/ 11).

(3) انظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام لعبد الله علي، ص 105.

3 ـ قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: 22].

إن الآية الكريمة ذكرت مبدأ من مبادئ الاستخبارات، وهو مبدأ جمع المعلومات، حيث إن الظروف التي جمعت فيها المعلومات هي ظروف حرب بدليل قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: 17]. نلحظ في هذه الآية تطبيق عناصر الاستخبارات التي هي:

ـ **إقرار مبدأ الحصول على المعلومات**: إذ أقر سليمان الهدهد ثم أرسله مرة أخرى: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [النمل: 27] ثم قال ﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: 28].

ـ **عرض المعلومات المجمعة**: قال تعالى: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل 23 ـ 24].

ـ **تقييم المعلومات المعروضة وتقرير مدى صحتها**: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [النمل: 27].

ـ **تحليل ودراسة المعلومات واستخلاص النتائج المفيدة منها**.

ـ **إمداد المسؤولين وإطلاع القادة على المعلومات**، فالهدهد كجندي من جنود سليمان رأى أن من واجبه أن يأتي بما حصل عليه من معلومات إلى مسؤوله وهو سليمان[1] عليه السلام: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: 22].

ـ **المباغتة والمفاجأة في جمع المعلومات وتوصيلها** وغير ذلك من الدروس والعبر.

4 ـ قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل: 17 ـ 18].

نلحظ في هذه الآيات الكريمة أن المعلومات السابقة لا تقتصر على بني البشر فقد يستفيد منها الحيوان والطير، إذ استفاد النمل من المعلومات السابقة، فاستعمل وسائل الإنذار

(1) الاستخبارات العسكرية في الإسلام، ص 108.

المبكر، إذ قالت نملة بلغة جنسها حسب ما وصلت إليه من معلومات: ادخلوا مساكنكم حفاظاً على حياتكم، لأن سليمان وجنوده ربما يدوسون بأرجلهم فوقكم فتحطمون بغير قصد، فقد بينت السبب في توجيه هذا الإنذار إلى جماعتها من النمل بفضل المعلومات المسبقة التي حصلت عليها[1].

5 ـ قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ [القصص: 11 ـ 12].

ونلحظ في الآيات الآتي:

ـ استخدام أم موسى مبدأ جمع المعلومات والحصول عليها في حفاظها على ابنها ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ والتقصي إنما هو تتبع الأثر وجمع المعلومات.

ـ اختيار العنصر الأمين والحريص في جمع المعلومات لتكون صحيحة وموثقة وأمينة، وقبل ذلك حريصة على تلك المعلومات ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾.

فأم موسى لم تختر غير أخته؛ لأن الأخت تعتبر من الحريصين والأمناء على تلك المصلحة وهي تندفع من ذاتها في جمع المعلومات وتحصيل الأخبار، والمهم بمكان أن يكون العنصر المرسل في عملية الاستخبارات أن يكون مندفعاً من ذاته، حريصاً على المصلحة المرسل إليه.

ـ التقصي والتتبع بدون إشارة أو جلب أنظار، ﴿قُصِّيهِۖ﴾. إذ نفهم من كلمة التقصي الانتباه وعدم إثارة الأنظار، ودليل ذلك أنها بصرت به دون أن يشعروا بها.

ـ دقة الملاحظة وقوة الفراسة أثناء جمع المعلومات، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: 11].

ـ استعملت أخت موسى شكلاً من أشكال الاستخبارات العصرية وهو التخريب الفكري، فبعد أن نظرت إليهن وهن غير قادرات على إرضاعه ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: 12]. وقد قصدت إبعاد موسى عن المراضع، ليخلص إلى أمها دون إشعارهم أنها منه بسبيل.

---

(1) في ظلال القرآن (4/ 141).

obeikandi.com

ـ محاولة تحقيق الهدف أثناء جمع المعلومات، فأخت موسى لم تكتف بأن تعرف مكان موسى لتخبر أمها بمكانه، وإنما هي تقصت الأخبار، وتوصلت إلى مكانه وحاولت إعادته إلى أمه، وقد نجحت في هذا(1).

6 ـ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: 71]. وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ﴾ [المائدة: 92]. وقال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء: 102].

إن الإعداد الأمني والاستخباراتي في العمل الإسلاميّ من مظاهر الحذر واليقظة، لأنها تحول دون مفاجآت الأعداء وتطبيق لآيات القرآن السابقة، كما أن السعي للحصول على المعلومات عن العدو الداخلي أو الخارجي حتى يكون التخطيط على أساس من أسباب القوة ومظاهرها التي أمر الإسلام بإعدادها من أسباب التمكين التي ذكرت في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60].

هذه بعض الإرشادات القرآنية إلى الأخذ بهذا المبدأ والإعداد له والاهتمام به.

ب ـ أما السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم فقد تركت لنا معالم مهمة وخطوطاً عريضة في هذا الجانب المهم في حياة المسلمين، فنجد في الفترة المكية من معالمها الكتمان والسرية، ولذلك نجد أن الرسول ﷺ اختار دار الأرقم بن الأرقم كمقر سري للدعوة وكان رسول الله ﷺ يربي أتباعه على العقيدة والأخلاف الرفيعة استعداداً لمرحلة قادمة، وكان سبب اختياره دار الأرقم:

1 ـ أن الأرقم لم يكن معروفاً بإسلامه، فما كان يخطر ببال أحد أن يتم لقاء محمد ﷺ بداره.

2 ـ أن الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه من بني مخزوم، وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم، فلو كان الأرقم معروفاً بإسلامه فلا يخطر في البال أن يكون اللقاء في داره، لأن هذا يعني أنه يتم في قلب صفوف العدو.

3 ـ أن الأرقم بن أبي الأرقم كان فتى عند إسلامه، فلقد كان في حدود السادسة عشرة من عمره، ويوم تفكر قريش في البحث عن التجمع الإسلاميّ فلن يخطر في بالها أن تبحث في

---

(1) انظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام، ص 111، 112.

بيوت الفتيان الصغار من أصحاب محمد ﷺ بل يتجه نظرها وبحثها إلى بيوت كبار أصحابه، أو بيته هو نفسه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد يخطر على ذهنهم أن يكون مكان التجمع على الأغلب في أحد دور بني هاشم، أو في بيت أبي بكر رضي الله عنه أو غيره، ومن أجل هذا نجد أن اختياره هذا البيت كان في غاية الحكمة من الناحية الأمنية، ولم نسمع أبداً أن قريشاً داهمت ذات يوم هذا المركز وكشفت مكان اللقاء[1]. ونلحظ أن النبيّ ﷺ يهتم ببناء الجهاز الأمني لدعوته ويزرع أتباعه في وسط القبائل من أجل السعي لتمكين دعوة الإسلام، فعندما أسلم عمرو بن عنبسة أمره النبيّ ﷺ أن يكتم إسلامه ويلتحق بأهله، وإذا نظرنا في قصة إسلام أبي ذر رأيت الجوانب الأمنية بارزة في تلك السيرة العطرة.

وفي بيعة العقبة الثانية نلحظ أن المسلمين رتبوا هذا اللقاء ترتيباً رفيعاً، فأخذوا بكافة الاحتياطات الأمنية من حيث الزمان والمكان، وعقدوا الاتفاق عقداً متيناً وحققوا ما أرادوا والمشركون في غفلة عمّا يحدث، وفي هجرة النبيّ ﷺ قمم شامخة في مجال الترتيب الأمني والتخطيط الاستخباراتي، وبعد أن انتقل النبيّ ﷺ إلى المدينة نجده يهتم بجمع المعلومات على أعدائه ويربي أصحابه تربية أمنية فريدة من نوعها:

1 ـ روي عن الرسول ﷺ أنه بعث عبد الله بن جحش رضي الله عنه في السنة الثانية للهجرة في اثني عشر رجلاً من المهاجرين، وزوده بكتاب مختوم، أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ويصل إلى موقع معلوم حدده له، فلما وصل ذلك المكان وآن وقت فض الكتاب، فضه فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامض على اسم الله وبركاته، لا تكرهن أحداً من أصحابك على السير معك، وامض فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم»[2].

نلحظ في هذه المهمة أمور منها:

1 ـ إن هذه السرية كانت سرية استطلاع، غايتها مراقبة العدو واستطلاع أخباره على نحو السرايا الاستكشافية التي تضعها الجيوش أمامها، أو على جانبها، أو على نحو المغافر الأمامية في جهة القتال، وكانت مهمتها المراقبة والاستطلاع فقط دون التعرض للأعداء بالتحرش أو الاحتكاك أو القتال، وهذا ما يسمى: الاستخبارات الهجومية، هدفها جمع المعلومات عن العدو فقط لمصلحة الدولة الإسلامية.

(1) المنهج الحركي للسيرة النبوية (1/ 49).
(2) سنن البيهقي: (9/12).

obeikandi.com

2 ـ أن الرسول ﷺ أمر أن تبقى سرية ومكتوبة حتى على من يحملها وسينفذها أخذاً بالاحتياط اللازم وخوفاً من تسرب أدنى معلومة للعدو، وتربية لأصحابه أن المعلومة تكون على قدر الحاجة[1].

وفي غزوة بدر أعطانا النبيّ ﷺ دروساً وعبراً وحكماً لجمع المعلومات على الأعداء وتوظيفها لنزع النصر من المشركين، فنلحظ أن النبيّ ﷺ جمع معلومات متكاملة على الأعداء، وقام ﷺ بالإشراف المباشر على جهاز الاستخبارات وساهم بنفسه وبغيره في جمع المعلومات عن مشركي مكة، ويمكن لنا أن نحصر أساليب الاستطلاع التي قام بها النبيّ ﷺ للحصول على المعلومات من مشركي مكة.

ـ أرسل بسيسة بن عمرو وعديّ بن أبي الزغباء حتى يأتياه بخبر عير أبي سفيان، فعادا وأخبراه بموعد وصول العير[2].

ـ قيامه ﷺ، وبصحبته أبي بكر الصديق رضي الله عنه بتحرّي المكان الذي توجد فيه قريش، وقد حصل له ما أراد عندما وقف على شيخ من العرب وسأله عن المكان الذي توجد فيه قريش.

ـ استنطاق الأسيرين اللذين قبض عليهما الصحابة واستفاد ﷺ من استنطاق هذين الأسيرين أموراً مهمة جداً منها: عدد أفراد جيش المشركين، موقع قريش، قيادة جيش المشركين ومن فيه من أشراف مكة[3].

وعتم النبيّ ﷺ على المشركين أخبار المسلمين وقام بأمر الكتمان خير قيام وكان صفة بارزة له في غزواته كلها، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ قلّما يريد غزوة إلا ورّى بغيرها...»[4].

وفي غزوة بدر مارس رسول الله ﷺ هذا العمل الأمني، ليرشد الأجيال على مر العصور وكرّ الدهور إلى أهميته، وتجلى ذلك في الآتي:

ـ سؤاله ﷺ الشيخ الذي لقيه في بدر عن محمد وجيشه وعن قريش وجيشها.

---

(1) انظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام، ص 114.
(2) مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (3/ 1510) رقم 1501.
(3) انظر: العبقرية العسكرية، للواء محمد فرج، ص 57، 58.
(4) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة (3/ 1383) رقم 1767.

obeikandl.com

ـ تورية الرسول ﷺ في إجابته على سؤال الشيخ: مما أنتما؟ بقوله ﷺ: «نحن من ماء». وهو جواب يقتضيه المقام فقد أراد به الرسول ﷺ كتمان أخبار جيش المسلمين.

وفي انصرافه فور استجوابه كتمان ـ أيضاً ـ وهو دليل على ما يتمتع به رسول الله ﷺ من الحكمة، فلو أنه أجاب هذا الشيخ ثمّ وقف عنده لكان هذا سبباً في طلب الشيخ بيان المقصود من قوله ﷺ: «من ماء»[1].

ـ أمره ﷺ بقطع الأجراس من الإبل يوم بدر، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر.

ـ كتمانه ﷺ خبر الجهة التي يقصدها عندما أراد الخروج إلى بدر، حيث قال ﷺ: «**إن لنا طلبة فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا**»[2].

وقد استدل الإمام النووي ـ رحمه الله ـ بهذا الحديث على استحباب التورية في الحرب وألاّ يبين القائد الجهة التي يقصدها، لئلا يشيع هذا الخبر فيحذرهم العدو[3].

وكان ﷺ يهتم بحركة عدوه؛ ولذلك كانت حركة الاختراق في القبائل المعادية واسعة جداً، ولذلك باغت ﷺ أعداءه مرات عديدة، وأفشل خططهم العدائية، ولما أرادت قريش أن تبغت رسول الله ﷺ بعد بدر كان مكتب استخبار مكة التابع للقيادة في المدينة يبعث بالمعلومات أولاً بأول إلى قيادته.

لقد حرص الرسول ﷺ على استطلاع أخبار قريش، وكان يستعين بعمه العباس، قال ابن عبد البر[4] ـ رحمه الله ـ: «وكان العباس يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ وكان المسلمون يتقوّون به بمكة، وكان يحب أن يقدم على رسول الله ﷺ، فكتب إليه رسول الله ﷺ أن مقامك في مكة خير»[5].

لقد كان جهاز الاستخبارات الإسلامية في مكة دقيقاً جداً وحقق نجاحات مهمة، ولقد قاد العباس بن عبد المطلب هذا الجهاز بكل جدارة ونشاط، وكانت معلوماته دقيقة وبياناته صحيحة، فمن هذه المعلومات ـ التي وصلت ـ رسالته إلى النبيّ ﷺ: (إن قريشاً قد أجمعت

---

(1) انظر: ابن هشام (1/ 616).
(2) مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (3/ 1510) رقم 1901.
(3) انظر: شرح النووي لصحيح مسلم (13/ 45).
(4) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، توفي 463 هـ. تذكرة الحفاظ (3/ 1128).
(5) الاستيعاب (2/ 812).

المسير إليك فما كنت صانعاً إذا حفوا بك فاصنعه، وقد توجهوا إليك وهم ثلاثة آلاف وقادوا مائتي فرس وفيهم سبعمائة درع وثلاثة آلاف بعير وأوعبوا[1] من السلاح)[2].

لقد احتوت هذه الرسالة على أمور مهمة منها:

1 ـ معلومات مؤكدة عن تحرك قوات المشركين نحو المدينة ولذلك استعد النبيّ ﷺ وشرع في أخذ العدة لمواجهة هذا الجيش العرمرم.

2 ـ حجم الجيش وقدراته القتالية وهذا يعين على وضع خطة تواجه هذه القوات الزاحفة.

أن النبيّ ﷺ لم يكتفي بمعلومات المخابرات المكية؛ بل حرص على أن تكون معلوماته على هذا العدو متجددة مع تلاحق الزمن، وفي هذا إرشاد لقادة المسلمين إلى أهمية متابعة الأخبار التي يتولد عنها وضع خطط واستراتيجيات نافعة، فحين وصل جيش المشركين إلى مكان، يقال له: العرض[3]، أرسل الرسول ﷺ الحباب بن المنذر فدخل بين جيش مكة وحزر عَدَده وعُدَدُه ورجع وأخبر النبيّ ﷺ، ولما بلغ الجيش ذا الحليفة أرسل الرسول ﷺ عينين له وهما: ابنا فضالة، فاعترضا لقريش بالعقيق فسارا معهم حتى نزلوا بالوِطاء ثم رجعا إلى المدينة وأخبرا الرسول ﷺ بذلك[4].

ولقد حرص النبيّ ﷺ على حصر تلك المعلومات على المستوى القيادي خوفاً من أن يؤثر هذا الخبر على معنويات المسلمين قبل إعداد العدة من تخطيط وترتيب، ولذلك حين قرأ أبيّ الرسالة على النبيّ ﷺ استكتمه ما فيها. وحينما دخل بيت سعد بن الربيع قال: «**أفي البيت أحد؟**» فقال سعد: لا، فتكلم بحاجتك، فأخبره بكتاب العباس بن عبد المطلب، فانصرف رسول الله ﷺ واستكتم سعداً الخبر[5].

وفي هذا تعليم للقيادة الإسلامية على أهمية كتم الأسرار وما يتصل بها حتى عن أقرب النَّاس إليهم من زوجات وأولاد ومن في حكمهم، وإذا دعت الضرورة إلى نشر شيء من ذلك، فينبغي أن يكون لمن يحفظ السر حتى لا يلحق المسلمون بسبب ذلك ضرر.

وبعد أن عقد المجلس الاستشاري ﷺ ووضعت الخطة المناسبة، اختار ﷺ الوقت

---

(1) استوعبه إذا أخذه أجمع.
(2) مغازي الواقدي (1/ 204).
(3) العِرض: هو الجرف، موضع في المدينة.
(4) انظر: المغازي للواقدي (1/ 206 ـ 208).
(5) المصدر نفسه (1/ 204، 205).

obeikandl.com

المناسب للتحرك والطريق التي تناسب خطته، فقد تحرك بعد منتصف الليل، حيث يكون الجو هادئاً، والحركة قليلة وفي هذا الوقت بالذات يكون الأعداء ـ غالباً ـ في نوم عميق، لأن الإعياء ومشقة السفر قد أخذ منهم مجهوداً كبيراً.

ومن المعروف من نام بعد تعب يكون ثقيل النوم، فلا يشعر بالأصوات العالية والحركة الثقيلة. قال الواقدي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «ونام رسول الله ﷺ حتى أدلج، فلما كان من السّحر قال: «**أين الأدلاء؟**»[1]. ثمَّ إنه ﷺ اختار الطريق المناسب الذي يسلكه حتى يصل إلى أرض المعركة وذكر صفة ينبغي أن تتوافر في هذا الطريق وهو السرّية، حتى لا يرى الأعداء جيش المسلمين، فقال ﷺ لأصحابه: «**من رجل يخرج بنا على القوم من طريق لا يمر بنا عليهم؟**» فأبدى أبو خيثمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استعداده قائلاً: أنا يا رسول الله ﷺ، ونفذ به بين بساتين بني الحارثة[2] ولاشك في أن مروره ﷺ بين الأشجار والبساتين يدلنا على حرصه ﷺ على الأخذ بالاحتياطات الأمنية المناسبة في أثناء السير؛ لأن الطرق العامة تكشف للأعداء عن مقدار قوات المسلمين وهذا أمر محذور.

فالرسول ﷺ يعلم الأمة الأخذ بالسرية من حيث المكان، ومن حيث الزمان، لئلا يتمكن الأعداء من معرفة قواتهم فيضعوا الخطط المناسبة لمجابهتها، وبذلك يذهب تنظيم القادة وإعدادهم مهب الرياح[3].

وفي غزوة الخندق يظهر دور جهاز أمن الدولة الإسلامية بارزاً، فقد كان يتابع أخبار الأحزاب ويرصد تحركاتهم ويزود القيادة بكافة المعلومات، فقام فرع مكة الأمني بإرسال معلومات دقيقة ساعدت القيادة في رسم الخطط قبل وصول الأعداء للمدينة، وأرسل ﷺ طليعة تتابع الأمور على كثب وترسل المعلومات الدقيقة، ولقد كان حفر الخندق مفاجأة مذهلة لأعداء الإسلام وأبطل خطتهم التي رسموها، وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون من إتقان رفيع لسرية الخطة وسرعة إنجازها وكان هذا الأسلوب الجديد في القتال له أثر في إضعاف معنويات الأحزاب وتشتيت قواتهم، ومارس ﷺ سلاح التشكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن بعد أن ساق المولى عَزَّ وَجَلَّ نعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسول الله ﷺ؛ ليعلن إسلامه وقال له: يا رسول الله ﷺ، إن القوم لم يعلموا

---

(1) المصدر السابق (1/ 204، 205).

(2) انظر: ابن هشام: (3/ 65).

(3) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ، ص 468.

بإسلاميّ فمرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ: «**إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة**»[1].

فقام نعيم بن مسعود بزرع الشك بين الأطراف المتحالفة بأمر من رسول الله ﷺ، فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصرف عن الحصار. وقال لقريش: إن اليهود إنما تطلب الرهائن لتسليمها للمسلمين ثمناً لعودتها إلى صلحهم، لقد اشتهرت قصة نعيم بن مسعود في كتب السيرة وإن كانت لا تثبت من الناحية الحديثة إلا أنها لا تتنافى مع قواعد السياسة الشرعية فالحرب خدعة[2] وقد نجحت دعاية نعيم بن مسعود أيما نجاح، فغرست روح التشكيك وعدم الثقة بين قادة الأحزاب، مما أدى إلى كسر شوكتهم، وهبوط عزمهم. وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية:

1 ـ أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نصح.

2 ـ أنه ذكر بني قريظة بمصير بني قينقاع وبني النضير وبصّرهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إن هم استمروا في حروبهم للرسول ﷺ، فكان هذا سبباً في تغيير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية.

3 ـ أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قال له وفي استمرار هذا الكتمان نجاح في مهمته، فلو انكشف أمره لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته، وقد حققت مساعي نعيم في تخذيل بني قريظة أمرين مهمين لجيش النبيّ ﷺ وهما:

1 ـ أن المسلمين بعد انسحاب بني قريظة من التحالف مع الأحزاب أصبحوا في أمان؛ لأن هؤلاء اليهود كانوا يسكنون المدينة فلو بقوا في هذا التحالف لما أمن المسلمون من توجيه طعنة لهم من الخلف مع أنهم مشغولون بمواجهة خصمهم من الأمام.

2 ـ أن المسلمين اطمأنوا إلى أن بني قريظة سيستمرون في إمدادهم بالمؤن التي يتطلبها الموقف؛ وذلك لشدة حاجتهم إليها وانشغالهم عن توفيرها بمواجهة الأعداء[3].

وكلف ﷺ الزبير بتتبع أحوال بني قريظة وجمع المعلومات عن نواياهم، ومدى التزامهم بالعهد، ورصد حركتهم المريبة[4] ومع أخذه ﷺ بكافة الأسباب إلا أنه ﷺ

---

(1) البداية والنهاية (4/ 13).
(2) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (2/ 530).
(3) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ، ص 477.
(4) انظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام، ص 119.

كان كثير التضرع والدعاء والاستعانة بالله وخصوصاً في مغازيه، وعندما اشتد الكرب على المسلمين أكثر مما سبق حتى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديداً وجاء المسلمون إلى النبيّ ﷺ وقالوا: يا رسول الله ﷺ، هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر. قال: «**نعم، اللَّهُمَّ استر عوراتنا وآمن روعاتنا**»(1).

ودعا ﷺ: «**اللَّهُمَّ منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اهزمهم وزلزلهم**»(2).

وقال ﷺ: «**لا إله إلا الله وحده، أعز جنده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فلا شيء بعده**»(3).

فاستجاب الله ـ سبحانه ـ دعاء نبيه ﷺ، فأقبلت بشائر الفرج، فقد صرفهم الله بحوله وقوته وزلزل أبدانهم وأنزل الرعب في قلوبهم، وشتت جمعهم بالخلاف، ثم أرسل عليهم الريح الباردة الشديدة، وألقى الرعب في قلوبهم وأنزل جنوداً من عنده ـ سبحانه وتعالى ـ وكان ﷺ يتابع الأمر وأحب أن يتحرى عما حدث عن قرب فقال: «**ألا رجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة**»(4)، فاستعمل ﷺ أسلوب الترغيب وكرره ثلاث مرات وعندما لم يجد هذا الأسلوب لجأ إلى أسلوب الجزم والحزم في الأمر، فعين واحداً بنفسه فقال، «**قم يا حذيفة فائتنا بخبر القوم ولا تذعرهم علي**».

وفي هذا معنى تربوي، وهو أن القيادة الناجحة هي التي توجه جنودها إلى أهدافها عن طريق الترغيب والتشجيع، ولا تلجأ إلى الأوامر والحزم إلا عند الضرورة.

قال حذيفة رضي الله عنه: «فمضيت كأنما أمشي في حمام فإذا أبو سفيان يُصْلي ظهره بالنار فوضعت سهماً في كبد القوس وأردت أن أرميه ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ «**لاتذعرهم عليّ**» ولو رميته لأصبته، فرجعت كأنما أمشي في حمام، فأتيت النبيّ ﷺ وأصابني البرد حين رجعت وقررت، فأخبرت رسول الله ﷺ فألبسني فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أبرح نائماً حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ «**قم يا نومان**»(5).

---

(1) رواه أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري عن أبيه (8/ 18).

(2) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (5/ 59) رقم 4115.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (3/ 1414) رقم 1788.

(5) المصدر نفسه.

ونستنبط من هذا الموقف دروساً مهمة منها:

1 ـ اختيار الرسول ﷺ حذيفة ﵁ ليقوم بمهمة التجسس على الأحزاب يدل على معرفته ﷺ بمعادن الرجال، وأن معدن حذيفة معدن ثمين[1]، فهو شجاع ولا يقوم بهذه الأعمال إلا من كان ذا شجاعة نادرة، فهذا العمل يكلفه حياته فلو اكتشفه الأعداء لكانت عقوبته الموت صلباً، ومع هذا أقدم على تنفيذ الأوامر.

2 ـ وضوح الأمر العسكري الذي وجهه الرسول ﷺ إلى حذيفة.

3 ـ الانضباط العسكري الذي كان يتحلى به حذيفة في تنفيذ الأوامر ونجاحه في الدور الذي أمر به وقيامه بالمهمة خير قيام ورجع وقدم المعلومات اليقينية الصادقة للرسول ﷺ.

ولما قرَّر النبيّ ﷺ فتح مكة، حرص على مباغتة قريش، وكتم الأمر حتى لا يصل الخبر إلى قريش فتعدَّ العدة لمجابهته، وتصدّه قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفه وشرع في الأخذ بالأسباب الآتية لتحقيق مبدأ المباغتة:

1 ـ أنه كتم أمره حتى على أقرب النّاس إليه:

قال ابن إسحاق ـ ﵀: «إن أبا بكر دخل على عائشة وهي تغربل حنطة فقال: ما هذا؟ أمركم رسول الله ﷺ بالجهاز؟ قالت: نعم، قال: وإلى أين؟ قالت: ما سمى لنا شيئاً، غير أنه قد أمرنا بالجهاز»[2].

2 ـ أنه بعث سرية بقيادة أبي قتادة إلى بطن إضَم:

بعث النبيّ ﷺ قبل مسيره مكة سرية مكونة من ثمانية رجال، وذلك لإسدال الستار على نيته الحقيقية، وفي ذلك يقول ابن سعد: «لما همّ رسول الله ﷺ بغزو أهل مكة، بعث أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر سرية إلى بطن إضَم،[3] ليظن ظانّ أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية ولأن تذهب بذلك الأخبار... فمضوا ولم يلقوا جمعاً فانصرفوا حتى انتهوا إلى ذي خشب[4]، فبلغهم أن رسول الله ﷺ قد توجه إلى مكة، فأخذوا على «بيبن»، حتى لقوا النبيّ ﷺ بالسُّقْيا[5][6].

---

(1) السيرة النبوية دراسة تحليلية للدكتور/ محمد أبو فارس، ص 366.
(2) البداية والنهاية (4/ 282).
(3) بطن إضَم: وادي المدينة الذي تجتمع فيه الوديان الثلاثة: بطحان، وقناة والعقيق.
(4) ذو خشب: موضع على مرحلة من المدينة إلى الشام يبعد 35 ميلاً عن المدينة.
(5) السقيا: موضع يقع في وادي القرى. معجم البلدان (3/ 288).
(6) الطبقات الكبرى لابن سعد (2/ 132).

3 ـ أنه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء:

بث رسول الله ﷺ عيونه داخل المدينة وخارجها حتى لا تنتقل أخباره إلى قريش «وأخذ رسول الله ﷺ بالأنقاب[1]، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف على الأنقاب قيماً بهم فيقول: «لاتدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه... إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه أو ناحية مكة».

4 ـ دعاؤه ﷺ بأخذ العيون والأخبار عن قريش:

فعندما أعلم رسول الله ﷺ النّاس أنه سائر إلى مكة وأمر بالجد والتهيؤ قال: «**اللّهُمَّ خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها**»[2].

وهذا شأن النبيّ ﷺ في أموره يأخذ بكافة الأسباب البشرية ولا ينسى التضرع والدعاء لربّ البرية؛ ليستمد منه التوفيق والسداد.

5 ـ إحباط محاولة تجسس حاطب لصالح قريش:

عندما أكمل النبيّ ﷺ استعداده للسير إلى فتح مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم فيه نبأ تحرك النبيّ ﷺ إليهم، ولكن الله سبحانه وتعالى أطلع نبيه ﷺ عن طريق الوحي على هذه الرسالة، فقضى ﷺ على هذه المحاولة وهي في مهدها، فأرسل النبيّ ﷺ علياً والمقداد فأمسكوا بالمرأة في روضة خاخ على بعد اثني عشر ميلاً من المدينة، وهددوها أن يفتشوها إن لم تخرج الكتاب فسلمته لهم. ثم استدعى حاطب رضي الله عنه للتحقيق فقال: يا رسول الله ﷺ، لا تعجل عليَّ، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش ـ يقول: كنت حليفاً ـ ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام فقال رسول الله ﷺ «**أما إنه قد صدقكم**» فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ﷺ، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «**إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[3]. فأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ

---

(1) الأنقاب: جمع نقب وهو كالعريف على القوم.

(2) البداية والنهاية (4/ 282).

(3) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح (5/ 105) رقم 4274.

﴿...خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: 1].

نجد من خلال قصة حاطب أن النبيّ ﷺ له فقه عميق في معاملة أصحابه وحرص شديد على الوفاء لهم وإقالة عثرات ذوي السوابق الحسنة، لقد جعل ﷺ من ماضي حاطب رضي الله عنه المجيد سبباً في العفو عنه.

من خلال الآيات القرآنية الكريمة والممارسة النبوية لهذا الباب تظهر الحاجة للحركات الإسلامية ودولها المسلمة لإيجاد أجهزة أمنية استخباراتية متطورة تحمي الإسلام والمسلمين من أعدائها اليهود والنصارى والملاحدة، وتعمل على حماية الصف المسلم في الداخل من اختراقات الأعداء فيه، وتجتهد لرصد أعمال المعارضين والمحاربين للإسلام حتى تستفيد القيادة من المعلومات التي تقدمها لها أجهزتها المؤمنة الأمينة، ولابد أن تؤسس هذه الأجهزة على قواعد منبعها القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية وتكون أخلاق رجالها قمة رفيعة تمثل صفات رجال الأمن المسلمين.

إن اهتمام المسلمين بهذا الأمر يجنبهم المفاجآت العدوانية، وقد كتب صن تزو مشيراً لأهمية ذلك:

«إذا عرفت العدو وعرفت نفسك فليس هناك ما يدعوك إلى أن تخاف نتائج مائة معركة، وإذا عرفت نفسك ولم تعرف العدو فإنك سوف تواجه الهزيمة في كل معركة»(1).

إن بناء الأجهزة الأمنية ومكاتب المعلومات التي تقدم للقيادة التقارير لوضع الخطط المناسبة على أثرها ليس أمراً جديداً، بل موغلاً في تاريخ الإنسانية وكذلك في تاريخ المسلمين.

إن من أسباب التمكين المهمة إعطاء هذا الأمر حقه من الاهتمام والارتقاء به وتطويره بما يناسب أحوال العصر الذي نحن فيه.

وبعد أن تكلمنا عن أسباب التمكين المعنوية والمادية لا أدعي أني حصرتها وإنما تكلمت عن بعضها وإلا فإن الأسباب وحدها تحتاج إلى أبحاث مستقلة.

---

(1) انظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام، ص 311.

obeikandi.com